

على هامش النفس

تأليف

عبدلقداد الميغري

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الناشر مكتبة الآداب بالجواميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة الأولى ١٩٧٧

٦٠٠٠ نسخة بالتمتة الجدي

obeykandi.com

تتميز

من إدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف

يتألف هذا الكتاب من عدة موضوعات تربطها كلها وحدة عامة هي أدب القرآن الكريم والتأدب به وما يجب على قارئه ومستمعه . وهي خمسة عشر موضوعاً : أولها رسالة الحجج الظاهرة في ماهي ملذات الآخرة ، وقد عرض فيها الأستاذ إلى آراء الشراح في هذه المباحث فأورد آراء المفسرين الفدائي وآراء الصوفية وآراء فقهاء اللغة .

ويلى هذا الفصل أربعة عشر فصلاً آخر ، كتب بعضها حديثاً وكتبت الأخرى مقالات في بعض الصحف .

والأستاذ المغربي غنى بفضلته عن التعريف ، وهو حجة فيما يكتب من حيث العلم واللغة والأسلوب . وهو خليق بأن يتجمل وحده تبة ما يرد في كتابه من شروح الآيات القرآنية ومن آراء دينية .

obeykandi.com

تمهيد

كنتُ (سنة ١٩٢٠ م) وضعتُ تفسيراً على « جزء تبارك » توخيت فيه السهولة في التعبير وفي إيراد المسائل ، وأن يكون ملائماً لروح هذا العصر ، وعقلية أبنائه . وهو اليوم يُطبع في المطبعة الأميرية على نفقة وزارة المعارف المصرية التي طبعت منه خمسة عشر ألف نسخة ولم يبق إلا تغليفها .

وكانت تعرض لى ، وأنا أبشر التفسير ، آيات النعيم ووصف ملذات الجنة والأشياء التي يُستمتع بها في بحاجتها . فكنت أفسرها تفسيراً ينفي الشبهة ويزيح الشكوك ويلتحم مع العقل السليم ، من دون أن أخرج عن قواعد اللغة والمعهود في أساليب العرب ومذاهبهم الكلامية ، ومن دون أن أتخطى قواعد الإسلام وأصوله التي تُبنى عليها سلامة العقيدة .

غير أني (من حيث لا أشعر) كنتُ أسهب في تفسير آيات الملذات إسهاباً رأيتني فيه خرجتُ عن الاختصار الذي التزمت في تفسير آيات جزء تبارك . فأشار عليّ بعض الإخوان أن أجرد ما قلته في تفسير آيات الملذات في رسالة خاصة وأن أسميها (الحجج الظاهرة في ما هي ملذات الآخرة) وأن أضيف على هذه الرسالة رسائل ومقالات أخرى كنت

كتبتها في ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها في موضوع القرآن وتفسير القرآن . واستدللت أن أسمى هذه المجموعة ذات الوحدة في موضوعها القرآن باسم ﷺ على هامشه التفسير ﷺ أي تفسير جزء تبارك الذي انتهى طبعه .

هذا وأسأل الله التوفيق في القول والعمل . ومغفرة ما فيه من سهو أو زلل .

عبد القادر المغربي

رِسَالَةُ الْحُجَّجِ الظَّالِمَةِ
فِي مَا هِيَ مُلْذَّاتُ الْآخِرَةِ

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله حمداً نستزيده به النعم . ونستدفع النقم . ونصلي ونسلم على نبيه
صلاة نقضى بها الذمم . ونكشف الغمم . وبعد فهذه رسالة أودعناها
كلّاماً عن نعم الجنة ، وأسباب مسراتها ، ووسائل اللذة الجسمانية التي يتمتع
بها الأبرار فيها من مثل الحجر واللحم والحدود والولدان والذهب والفضة . وقد
بحثنا في رسالتنا هذه عما إذا كانت تلك الوسائل والأسباب اللذة حقيقية
يتناولها الأبرار بأعيانها . أو أن لها معنى آخر تمثلياً يقربها من الأفهام
ويدنيها من تناول الأذهان ؟ ؟

خلاصة معاني مجموع الآيات

التي ذكرت فيها وسائل النعيم

وأسباب الملذات

أعد الله في الشاة الثانية داراً لأهل طاعته سماها الجنة . إذا
دخلوها لا يسمعون فيها لغوا ولا فحشا . ويكون لهم فيها أزواج مطهرة من
الحور العين . وولدان للخدمة لا يشيبون ولا يهرمون . ويقال لهم : كلوا
واشربوا جزاء بما كنتم تعملون ، فإياكلون لحوم الطير في صحاف من ذهب
وآنية من فضة . ويتناولون من نضج الثمار المتهدلة . والفاكهة الكثيرة
الدائمة . تحت ظلال أشجار السدر والطلح (الموز) ويشربون من أنهار

الخر واللبن والعسل ومن العيون الجارية شراباً ممزوجاً بالكافور والزنجبيل ،
تفوح منه عقب شربه رائحة المسك ، في أباريق وأقداح من فضة صافية كالزجاج
البراق ، ويتكثون على الأسرة^(١) المنسوجة بالدر والجوهر والفرش المنجدة
المرفوعة ، وقد أرخيت عليهم الكلل والستور ، وحولهم الوسائد والتمارق ،
ومن تحت أرجلهم الزرابي والبسط ذات الألوان المختلفة . وأفرغت على
جسومهم ثياب الحرير والديباج الأخضر ، وفي معاصمهم أساور الفضة
والذهب واللؤلؤ .

فصل في اختلاف الباحثين

ذكر الله كل ذلك في القرآن الكريم مفرقاً في سورته ، لمناسبات
عرضت في صدد حضنا على الإيمان بالله وممارسة البر والخير والتقوى
والعمل الصالح . وقد اختلف الباحثون من أبناء ملتنا معشر المسلمين في فهم
هذا النعيم ووسائل لذائذه الجسمانية المذكورة وهل هو على ظاهره وحقيقة
كلماته اللغوية أولا معنى آخر - على ثلاثة أقوال - وقد انقسموا باعتبارها
إلى ثلاث فرق كبرى :

الفريق الأول

هم جمهور العلماء المتقدمين ومن تبعهم من عامة المسلمين إلى اليوم :
فقالوا : إن ما ذكره الله في القرآن عن الجنة وأسباب نعيمها داخل كله تحت
القدرة الإلهية ، والإمكان العقلي ، وقد خلق نظيره في دنيانا هذه ، ومن
خلق هذا قادر بالضرورة على خلق ذلك . فالواجب تصديقه والإيمان به

(١) السرر استبدال القرآن والأسرة جمع صحيح أيضا

من دون تأويل أو تعليل . حتى قال ^(١) أبو قلابة في تفسير قوله تعالى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) إن أهل الجنة يؤتون بالطعام والشراب ممزوجا بالكافور والزنجبيل : فإذا أكلوا وشربوا ما شاءوا دعوا بالشراب الطهور المذكور . فيشربونه فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم كريح المسك فتضمر لذلك بطونهم .

فيكون الشراب الطهور على قول أبي قلابة كالحاضوم أو (الكازوز) يخفف ثقل طعام الجنة وشرابها الممزوجين بالكافور والزنجبيل . وأبو وهب الزاهد الأندلسي القرطبي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ كان يقول . (والله لا عائق الأبرار في جنات النعيم إلا من عائق الذل وضاجع الفقر في دار الدنيا وخرج منها كما دخل فيها) وخوى هذا أن القوم كانوا يذهبون في كل ملذات الجنة وأسباب نعيمها مذهب الحقيقة . وأنها جسمانية محضة كملذات الدنيا وأسبابها المعهودة لنا ، ومستندهم في ذلك ظاهر الوحي والأحاديث ، وصلاحيه قدرة الله تعالى لكل ما أخبر به في وحيه ^(٢)

الفريق الثاني

هم الصوفية الذين اشتهروا بعشق الحضرة الإلهية والاستغراق في تقديس الذات الأحادية . فكلام هؤلاء يشعر بأن للأكل والشرب ولحم الطير والفاكهة والخمر واللبن والأكواب والخور والولدان والأساور والستور

١ - راجع تفسير الطبري سورة (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) (جزء قرآن ٢٩) صفحة ١٣٧ وتفسير النيسابوري على هامشة صفحة ١٢٢ - وأبو قلابة هذا محدث بغدادى متعبد كثير الصلاة حدث من حفظه بستين ألف حديث تولى سنة (٢٧٩) هـ

٢ - وأن الأصل دلالة اللفظ على معناه الحقيقي مالم يوجد مانع يمنع من إرادة الحقيقة ويتنقى معنى مجازيا .

والموسائد ، والفضة والذهب ، واللؤلؤ — معاني آخر وراء ما يستفاد منها لغةً ، وأن هذه المعاني هي المقصودة في الخطاب الإلهي . وبذلك رجعوا النعيم الجسماني إلى نعيم روحاني كما سترى . لسكنهم — إلا القليل منهم — لا يحرمون على نفي النعيم الجسماني بكرة خشية قيام العامة عليهم ، ونزول عقوبة قضاة الشرع بهم .

شواهد من كلام أرباب هذا الفريق

قال المفسر النيسابوري عند قوله تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، وإتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة) بعد أن ذكر قول الفريق الأول الذين يحملون الآيات على ظاهرها مانصه : ويحتمل أن يقال : وإن كمال السعادة ليس إلا في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله من الملائكة المكروية^(١) والملائكة الروحانية . وطبقات الأرواح وعالم السموات بحيث تصير روح الإنسان كالمرآة المحاذية لعالم القدس ، ثم إن هذه المعارف تحصل في الدنيا ، ولسكن لا يحصل بها كمال الالتذاذ والابتهاج ، لمكان للعلائق البدنية ، وإذا زال العائق بعد الموت ، وشاهد تلك المعارف قال هذه هي التي كانت حاصلة لي في الدنيا ووجد كمال اللذة والسرور .

فإنما الرزق التي تقدم إلى أهل الجنة على هذا القول ليست سوى المعارف التي تتعلق بذات الله وملائكته وطبقات الأرواح . ثم قال : وقال أهل التحقيق : (ويعني بهم الصوفية الذين وقفوا على حقائق الأشياء من طريق الرياضة والكشف)

(١) المكروية = سادة الملائكة والمقربون منهم

الجنة جنة الوصول ، وأشجارها المالكات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ،
والثمرات ثمرات المكاشفات والمشاهدات والأسرار والإشارات والإلهامات
إلى آخر ما قاله فراجعته ، وقال أيضاً عند قوله تعالى (عينا يشرب بها عباد الله
يفجرونها تفجيراً) لا يبعد أن يكون (الخمر) عبارة عن العلوم الدنيوية
الحاصلة بالذوق والمكاشفة و (الكافور) عبارة عن المعارف الحاصلة بواسطة
البدنية (ومزاجها) عبارة عن كذا و (تفجيرها) عبارة عن كذا إلى آخر
ما قال . وقال عند قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) (أساور اليد)
كسبها وأعمالها التي صارت ملكات نورانية الخ .

هذا نموذج مما يقوله أهل هذا الفريق والله أعلم بقصودهم ونياتهم وما
إذا كانوا ينكرون المملذات الجسمانية وأسبابها المادية أولاً . وربما وجد في
بعض الآثار ما يشهد لهؤلاء فيما ذهبوا إليه من تأويلاتهم . كحديث الإسراء
الذي رواه المفسر الطبري وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن
أنهار رآها في الجنة فأجابه بقوله : (وأما الأنهار فأولها رحمة الله ، والثاني
نعمة الله ، والثالث سقايم ربهم شراباً طهوراً) .

ومذ ركدت ربح علوم السادة الصوفية ، في هذه الأزمان المتأخرة ، أصبحت
أقوالهم بشأن نعيم الآخرة وأسباب لذواتها ، كأنها مفقودة من بين المسلمين
الاهم إلا رسوماتهم في كتبهم ، وبين بعض الذين يحفظون من أقوالهم ، وقليل
ماعم . والمشهور أن الصوفية لا ينكرون النعيم الجسماني ، وما أوهم ذلك من
أقوالهم فهو من باب الإشارة .

الفريق الثالث

قلنا إن عمدة الفريق الأول فيما ذهبوا إليه الإمكان العقلي وصلاحيّة قدرة الله وظاهر النصوص الشرعية وعمدة الفريق الثاني الكشف والإلهام والذوق واستبطان أسرار عوالم الغيب .

أما (الفريق الثالث) فلا يقيمون وزنا لما استند إليه هذا الفريق — أعني الفريق الثاني — من المكاشفات ومعرفة الأسرار ، لا لأنهم ينكرون ذلك — فهم يسمونه لأهله — بل لأنهم يقولون : إن الله أنزل علينا القرآن بلسان عربي مبين ، وكلفنا أن تدبره ونتفهم معانيه ونعمل بها ، وبديهي أن الوسيلة في فهم هذه المعاني واستخراجها من أطوار الخطاب الإلهي إنما هي اللغة العربية وطرق بلاغتها ، ومختلف أساليب التخاطب بها ، فهي التي أنزل بها الوحي وعليها يعتمد أهل اللسان في مخاطبتهم ، أما ما يسمونه الذوق والمكاشفة فإنه أمر يختلف باختلاف الأشخاص واستعداداتهم النفسية . وليس له قواعد مضبوطة ، ولا شواهد من اللغة محفوظة ، يرجع إليها عند الخلاف ، وإن تفسير آيات القرآن بواسطة يروج الدعاوى الفاسدة ، والمزاعم الكاسدة ، وينقلنا إلى عالم من الوهم والخيال لا منتهى لحدوده . فلم يبق لنا حبل تمسك به في الوصول إلى فهم القرآن سوى اللغة ، ومذاهب العرب في ملاحى كلامهم ، ومناحي خطابهم . وأساليب كنياتهم ، ومن ثمة نبه

الشارع إلى مكانة اللغة العربية ودراسة أساليبها في فهم أسرار القرآن . وقد عبر صلى الله عليه وسلم ابن قنطلة المشرك بجهله منذ نزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) فقال ابن قنطلة لقريش : اسمعوا ماذا يقول محمد : إنه يزعم أن عيسى والملائكة حصب جهنم . فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أجهلك بلغة قومك ، إن (ما) لما لا يعقل . وعذر الشارع عدى بن حاتم الطائي منذ نزل قوله تعالى في الصوم : وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فظن عدى الخيطين حقيقيين فبيت تحت وسادته خيطين أبيض وأسود ، وظل طول الليل يتأمل فيهما ليتبينهما ، فالتبس عليه الأمر ولم يعرف الوقت ، وشكا أمره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : إنك لعريض الوساد^(١) ، مشيراً إلى غفلته ، وذهوله عن أساليب التخاطب عند العرب ، وأنه كان عليه أن ينتبه إلى أن الخيط الأبيض والخيط الأسود في مثل هذا المقام وهو تبين طلوع النهار ، لم يكن المواد بهما إلا خيط سواد الليل الملاقى لخيط بياض الصبح في عرض السماء ، ومع ذلك عذره الشارع ولم يحمله على الإلهام والمكاشفة ولا على وسيلة أخرى من وسائل الفهم الذوقي سوى اللغة فأنزل الله كلمة (من الفجر) زيادة على الآية ليرتفع بها اللبس عن أمثال عدى رضى الله عنه .

وسأل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وهو على المنبر ، الناس يوماً فقال : ماتقولون في معنى قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف) فسكتوا فقام شيخ من هذيل ، فقال هذه لغتنا : التخوف التنقص فقال له : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم — قال شاعرنا زهير :

(١) كون الوساد عريضاً يدل على طول العنق وطوله عند العرب آية على البلادة والغفلة .

(تخوف الرجل منها تاركاً^(١) قرداً^(٢) كاتخوف عود النبعة^(٣) السفن^(٤))
فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر
الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم.

وفي الحديث الشريف: أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن، أي إذا أمكنكم
أن تفصّحوا في كلامكم أمكنكم إذ ذاك أن تفصّحوا عن معاني القرآن وأن
تدينوا ما استتر من أسرارِهِ.

وقد عرف هذا كبار علماء الإسلام، الذين استبطنوا أسرار الشريعة
وحكمها في هداية الأنام، ولم يستبطنوا في فهمها أموراً زجت بهم في بيداء
الخيالات والأوهام. فقد قال الإمام الشاطبي الغرناطي المتوفى سنة (٧٩٠)
للهجرة في كتابه (الموافقات)، الذي ألفه في الكشف عن أسرار التشريع
الإسلامي ما خلاصته:

(إن الشريعة عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق
الفهم، وإن المبتدئ في فهم اللغة العربية يكون مبتدئاً في فهم الشريعة.
وهكذا كلما تدرج في مراقق فهم اللغة، تدرج في مراقق فهم الشريعة. حتى إذا
انتهى في فهم اللغة انتهى في فهم الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم
الصحابة وغيرهم، من فصحاء الأئمة رضوان الله عليهم. وكل من قصر فهمه
في اللغة لم يكن حجة ولم يكن قوله مقبولاً. قال الجرمي: أحد أئمة اللغة
العربية: أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس من كتاب سيديويه — يريد أنه كان
صاحب حديث، وكتاب سيديويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على
مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتهم في ألفاظهم ومعانيهم أ هـ).

(١) تمسك السنام = ارتفع (٢) القرد = يراد به السمكة (٣) النبعة =
شجرة القسي السفن = ما ينجر به الحطب.

فصل

ومحصل القول أن الفريق الأول مقلدون جمدوا في فهم آيات القرآن ومنها آيات النعيم والعذاب — على ظاهر ألفاظ اللغة ، ووقفوا على قشورها وغفلوا عن لبابها ، وما اعتاده أهلها في مخاطبتهم من التفنن في ضروب الاستعارات ، ومختلف أساليب التمثيل والكنيات .

والفريق الثاني : وهم الصوفية أرباب المراجيد والمذاويق ، أطلقوا أنفسهم من كل قيد لغوى وتجاوزوه إلى مالا علاقة له بقواعد اللغة ، ولا بفنون بلاغتها ، ولا بما اعتاده أهلها من أساليب الكناية والتمثيل ثم حكموا في ذلك كشفهم وذوقهم .

أما الفريق الثالث فهم الذين تمسكوا في فهم آيات القرآن وآيات النعيم والعذاب من اللغة ولبابها بأقوى سبب . واستبطنوا — لكن — أسرار علوم البلاغة ومرامي أساليب العرب .

فصل

في إيضاح طريقة الفريق الثالث

قلنا آنفا أن الفريق الثالث يعتمدون في فهم آيات القرآن وخاصة الواردة في وصف نعيم الجنة وملذاتها المختلفة على لباب اللغة العربية وأساليب التخاطب بها . فإن ذلك هو الحبل الوثيق والعروة التي لا انفصام لها . ويقولون للفريق الأول الذين أخذوا بظاهر الآيات المذكورة وذهبوا إلى أن كل ما ذكر فيها قد أريد به حقيقة العينية :

حقاً إنه لا مانع عقلاً يمنع من وقوع تلك الملذات الموعود بها بأعيانها في الدار الآخرة ، ولا نشكر قدرة الله تعالى على تمتيع الأبرار في دار كرامته بهذا الضرب من لذوى العيش ، والتقلب في النعيم وتناول أسبابه ووسائله المذكورة في القرآن الكريم بحقيقتها . ومن أشد حقا من يرى بعينى رأسه آثار قدرة الله في هذه الدار الفانية مذ أبدع فيها ما أبدع من الغرائب والعجائب ، وأنعم على الإنسان فيها بصنوف النعم والآلاء وضروب المرافق واللذائذ : من مأكول ومشروب وملبوس وملبس ثم ، يشكر أن يمنح مثل ذلك أو أكمل منه للأبرار في دار كرامته ؟ ؟ ومن قدر على إحيائهم حياة ثانية لمكافأهم على ما عملوا من عمل صالح ، كان بالضرورة قادراً على أن يخلق لهم ما كان سبق وخلق لهم مثله في حياتهم الأولى : فليس الشأن إذن في قدرة الله ، وشمول أثرها وصلاحيته تعلقها بكل ممكن عقلى ، وإنما الشأن الذى حمل هذا الفريق على العدول عما ذهب إليه الفريق الأول ، هو ما نبسطه في الفصل الآتى :

فصل

إن العقائد الدينية ، والتعاليم السماوية ، منحتها العناية الالهية للبشر من أجل حملهم على الإيمان بالله وطاعته والحق والعدل لينتظم حالهم ، وتتوفر سعادتهم .

ومن تلك العقائد والتعاليم ، التعليم بسعادة أخروية أبدية ، وقد حقق الإسلام أمر هذه السعادة ، ورغب فيها وحض عليها بضروب مختلفة من أساليب التحبيب والترغيب : فوصف من مظاهرها ووسائلها ما وصف في

آيات القرآن المفرقة في عدة سور من سوره . كل ذلك ليشوق النفوس ، ويستنهض الهمم ، ويحفز العزائم ، إلى البر والعمل الصالح ، وممارسة الخير والفضيلة ، واجتناب الشر والرذيلة .

فيجب اذن أن نتلقى هذه العقيدة الإسلامية على طريقة نافعة لنا ، مؤثرة في أخلاقنا وآدابنا وانتظام أمر اجتماعنا . وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالوحي وتصديق ما قاله الله في وصف ذلك النعيم والدعة وصنوف اللذة الآخروية . وقد أخطأ جد الخطأ من عطل هذه العقيدة وجعلها روحانية محضة ليس للجسد فيها نصيب ذهاباً منه إلى أنها لذة معارف ، وعلوم لدنية ، وملكات نورانية ، ووصول إلى الحضرة ، وتمتع بالقرب ، كما أخطأ أيضاً من جعل ملذات الجنان ، تسكون بالإحساس الجسدى المعهود لنا في دار الدنيا ، واقفين في فهم النصوص على ظاهرها وقشورها ، مما يجعل أناساً من أبناء هذا العصر ، يتلقون هذه العقيدة بفتور وبغير ما يجب من التوقير ، وبغير أن يكون لها في هممهم وعزائمهم ما ينتظر من التأثير . ولا سيما أن الدقة^(١) ومبغضى الإسلام قاموا في هذه الأزمنة المتأخرة ، فأكثرُوا من تعيير المسلمين والقدح فيهم وفي دينهم ، وأكبر تمكأة يتكثرون عليها في ذلك عقيدة « ملذات الجنة ، مذيسمعوننا - معشر المسلمين - تأخذ بظاهرها الحرفي ، ويرون الشراح والمفسرين للقرآن الكريم يذهبون في وصف تلك الملذات ، وتحقيق أمرها مذهب أبي قلابة القائل : إننا نتخم من أكل الجنة الملتوث بالكافور والزنجبيل فنستعمل الهاضوم .

ولا يحسن بنا أن نتغافل عما يقوله كتاب أوربا وقصصيتهم وشعراؤهم فينا وفي ديننا وتقاليدها ، فقد كان لقولهم تأثير عميق في نفوس أقوامهم .

(١) الدقة = المظهرين عيوب الناس

وبنى جلدتهم ، فافتنعوا فَضَّلَ اقتناع بأن المسلمين منحطون في دينهم وآدابهم وأخلاقهم . وأن الواجب على العالم المتمدن التردد لهم ، والانتباه لأمرهم ، زاعمين أن المسلمين إذا استتبت لهم سلطة يوما من الأيام -- مع ما هم فيه من الكثرة والانتشار في أطراف المعمور ، والتدين بهذا الدين الغريب الأطوار ، والإيمان بهذا الكتاب الذى يعدهم بشهوات حيوانية (كذا يزعم الغربيون) -- أفسدوا العالم ، وقضوا القضاء الأخير على بنى آدم . ذلك فى جملة الأسباب التى أغرت رجال السياسة بنا ، فسعوا مساعيهم المعهودة منذ قرن حتى فلوا شوكتنا ، ومحووا سلطتنا وبشوا وسيبثون دعاة الدين بين أبنائنا فيشككونهم فى ديننا ، ويجلبونهم غير جلبنا بنا .

ومعظم السبب فى ذلك زعمهم فى الإسلام ، أنه دين شهوانى لا يصلح للبشر ، ولا يلتحم مع رقيهم الفكرى والاجتماعى ، مادام يعد بجنة يؤكل فيها اللحم ويشرب الخمر . وكنت قرأت منذ بضع سنين فى إحدى الجرائد المصرية المسيحية مقالا لبعضهم طعن فيه على العرب وعلومهم ومؤلفاتهم ، وأذكر من قوله هذه الفقرة : « ومباحثهم الفلسفية لا تخرج عن معانى الشهوات البهيمية ومطالب النفس البشرية فى هذه الدنيا أو ما يخيل إليها فيما بعد الممات ، فسألة « ملذات الجنة » ليست بسيطة كما يريد أن يعتبرها إخواننا الذين يرجحون العمل بقول (أبى قلابة) بل هى مسألة خطيرة ، والبحث فيها لعمري من أهم ما يجب علينا الأخذ فيه ، حفظا لديننا ، وتنزيها لقهرآنا ، وصونا لكرامتنا .

فصل

في بيان أقوال الفريق الثالث

نعتقد - معشر المسلمين - أن الله تعالى سيحيى الخلائق بعد موتهم ، ونقول بحشر الأجساد كما تقول به سائر الأديان السماوية ، وأن الله أعد للأبرار من الخلق دارا تسمى (الجنة) يتمتعون فيها . ويتقلبون في صنوف من اللذائذ والمسرات ، تناسب تلك النشأة الثانية .

ومذ أراد الوحي الإلهي أن يصف للمخاطبين تلك اللذائذ والمسرات وشعور أهل النعيم بها ، وصفها لهم بما ألقوه وكلفوا به من ملذاتهم الدنيوية ، على نحو مما يشعرون به مفرغا ذلك الوصف في التراكيب والأساليب التي اعتادوها في التخاطب بينهم ، ودرجوا عليها في ملاحن كلامهم ، وذلك لعجز فطرهم وضعف استعدادهم . . عن فهم تلك الملذات الآخروية وتعقلها بالسكينة والحقيقة ، فضرب لها مثلا ملذات الدنيا ووسائل اجتلابها وأسباب الشعور بها من مثل الحور واللحم والخمر واللبن والفاكهة والأسرة ، والحرير والذهب ، والفضة ، واللؤلؤ ، ولا يخفى أن تمتيع النفس بهذه المذكورات وتقليب النظر ، فيها وممارسة الحواس لها من أكبر ملذات الدنيا ، وأسباب التترف فيها عند البشر عامة ، وعند العرب المخاطبين بالوحي لذلك العهد خاصة .

فالمنعم في الجنة يشعر بلذة عجيبة ، ثم يحس بمسرة غيرها شديدة التأثير في نفسه ثم بلذة ثالثة ، وبأخرى غيرها رابعة وهكذا ، فتتألف من مجموع هذه الملذات والمسرات ، وشعور النفس بها حالة صورها الوحي الإلهي

للشعر بحالتهم التي يشعرون بها ، منذ يتناولون ملذوذاتهم الدنيوية المتعددة الأنواع ، المختلفة الأشكال ويمارسون أسبابها ووسائلها كل ذلك تشويقاً لهم ، وحفزاً لهممهم إلى الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله .

ولا يلزم من هذا أن تكون ملذات الجنة روحانية أو معنوية ، لا وجود لها في الخارج ، ولا يشعر بها الجسم : لأنك إذا ضربت جود حاتم المعهود لك مثلاً لجود زيد لا يلزم منه أن يكون جود زيد أمراً معنوياً لا وجود له في الخارج ، وإذا ضرب الله لنا لحم الطير مثلاً للملذة من ملذات الجنة لا يلزم منه أن تكون ملذة الجنة روحانية لا يحس بها الجسد ، ويوشك أن يكون الشرع قد نقل الكلمات الدالة على المسرات من معناها اللغوي الدنيوي إلى معنى اصطلاحى جديد آخرى ، فنقل كلمات الخمر واللبن ولحم الطير والخور والولدان ، من معانيها المعهودة في الدنيا إلى معان أخرى ، وهي وسائل اللذات والمسرات التي تكون في الجنة ، فهذه الكلمات إذن لها معان لغوية ومعان أخرى عرفية أو شرعية ، وهذا ككلمات الصلاة والصوم والزكاة ، وغيرها مما له معان لغوية ومعان شرعية ، فالخمر في اللغة اسم للسائل المسكر المعروف ، وهو في الشرع أو في لغة القرآن واصطلاحه اسم لضرب من ملذات الآخرة تكون في الجنة ، ولما كانت هذه المسرات الآخروية متنوعة مختلفة في درجة لذاتها ، أو في درجة استحقاق مستحقها ، نقل الشرع إليها الكلمات الدالة على ملذات الدنيا المتنوعة ، ومسراتها المختلفة . ولا يتوهم أحد أن ما قلناه هو بعينه قول المتصوفة السابق لأن ، المتصوفة إنما يجعلون مدلولات هذه الألفاظ الدالة على الملذات أموراً ذوقية ، يتحسس بها طائفة خاصة ، بينما نحن نقول بأن لتلك الألفاظ مدلولات علوية تلائم الحياة ،

الحياة الآخروية لا نستطيع اكتناهاها في حياتنا الدنيا ، وإنما فعل الشرع ذلك تفاديا من وضع كلمات جديدة لهذه المسرات الآخروية ، ليست من لغة العرب المخاطبين ولا يفهمونها ، والحكمة تقضى أن لا يخاطبهم إلا بما يفهمون لتنهض الحجة عليهم . وما فعله الشرع من نقل هذه الكلمات من معنى إلى معنى لم يكن بدعا من عادة العرب . قال أبو عبيدة في شرحه على نقائض جرير والفرزدق : (أصل معنى الصيد داء يأخذ الإبل في رؤوسها فتميل رؤوسها من الوجع ، ثم نقلت العرب الصيد إلى الناس فقالوا : فلان أصيد إذا كان متكبرا يميل رأسه تكبرا وتجبرا ، فالصيد من الحروف (أى الكلمات) المنقولة أى الألفاظ التى تكون للشيء ثم تنقل إلى غيره وقد فعلته العرب فوسعت بذلك كلامها) .

فصل

(فى ذكر شاهد من أقوال العرب على صحة قول هذا الفريق)

نقول ولكن هل عهد فى أساليب العرب ، وملاحن خطابهم ، وكنائيات لغتهم التى قلت إنها الحبل الوثيق فى التسور إلى معانى آيات القرآن شئ من هذا القبيل وإلى هذا الحد فى التصوير والتمثيل ؟؟ .

أقول إن ذلك مستفيض فى كلامهم وأشعارهم التى ضمنوها وصف أحوالهم والحكاية عن أطوارهم ، استفاضة لا يعلمها إلا من أطلال النظر فى أقوالهم ، وعمل بنصيحة سيدنا عمر رضى الله عنه فى مراجعة دواوينهم . أكثرت الخنساء فى شعرها من مدح أخيها صخر ، ووصف سجاياه ،

وتقريظ ما أوفى من خصال المجد والسكرم . فقل لها : « مامدحت أخاك
حتى هجوت أمك » ، يعنون أنها بهذا الاكثار من المدح في أخيها ، تكون كأنها
رجحته على أبيها عمرو بن الشريد في مناقب المجد ، وخصال السكرم ، فقالت
بحجة على ذلك :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران^(١) ملاءة الحضر
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعدر
وعلا هتاف الناس أيهما ؟ قال الحبيب هناك : لا أدري
برزت^(٢) صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا إلى وكر^(٣)

(ملاءة الحضر) : الحضر ، جرى الخيل في حلبة السباق ، وهذا جرى
ينشأ عنه غبار يلتشر في الفضاء فشبهته الساعة بالملءة وهي الثوب
المعروف ويسمونه اليوم (ملأية) (يتعاوران) أى يجذب ملءة الغبار
ويلتحف بها هذا مرة وهذا مرة ، تقول إن أباه وأخاه تجاريا في حلبة
السباق فأقبلا معاً يتجلبيان في غبار واحد .

(حتى إذا نزت القلوب) قلوب النظارة (أى المتفرجين) ووثبت في
صدورهم من فرط شغفهم بمعرفة السابق منهم .

(١) ويروى يتماقبان ويتنازغان ويتجاذبان .

(٢) ويروى (برقت) وصحيفته الوجه بكرة جلده .

(٣) ويروى هذا البيت مقدما بمد جارى أباه . الخ .

(وقد لزت إذ ذاك العذر بالعذر) ، العذر ، جمع (عذار) ككتب جمع كتاب والعذار ما سال من اللجام على خد الفرس ، تقول الخنساء : وقد كان في أثناء السباق لجام فرس الأب ولجام فرس الابن أو خد فرس هذا وخد فرس ذاك متقابلين متحاذيين .

(وعلا هتاف الناس) ارتفعت أصواتهم من كل جانب — كما هي عادة النظارة عند إقبال خيل السباق نحو الغاية — قائلين : أيهما السباق الأب أو الابن ؟ فكان أحدهم يجيب الآخر بقوله (لا أدري) أي من السابق منهما . (عندها برزت صحيفة وجه والده) أي ظهر وجه الأب للنظارة فعرفوا أنه هو السابق ، (ومضى) الابن (على غلوائه) ذلواء الأب وشوطه في الميدان (يجرى) وراه متأثراً له .

ثم قالت (أولى فأولى الخ) أي أن أخاها جدير بأن يساوى أباه ويحاذيه ولا يدعه يسبقه ، لسكنه تأخر قليلاً مراعاة لسن والده ، وجلال شيخوخته . ثم شبهتهما وقد وصلا إلى الغاية بصقرين وقعا منقضين على وكرهما قبل لأبي عبدة : « ليست هذه الأبيات موجودة في مجموع شعر الخنساء ، فقال : « العامة أسقط من أن يجاد عليهم بمثل هذا يريد أن هذه القطعة الشعرية البليغة في أسلوبها وتمثيلها مما يضن به إلا على الخاصة من أهل الفضل والنبيل .

والذي يقلب نظره ، ويعمل فكره في شعر الخنساء هذا ، يعلم أن كل ما تريده أن تجعل أباه وأخاها في مستوى واحد ، من توفر خصال المجد والكرم فيهما ، لسكنه يقف موقف الذاهل المتسائل : كيف هذا ؟ وكيف أبرزت هذا المعنى مبرز سباق واقعي ، في ميدان خارجي ، شوهد فيه جرى

وغبار ولجم متلازمة ، ونظارة مشاهدون للسباق ، لهم قلوب مضطربة
مستشرفة إلى المتسابقين، كي تتبين من السابق منهما الأب أو الابن ، بحيث
ترتفع أصواتهم ويشتد تحاورهم، ويقول بعضهم لبعض: أيهما السابق؟ فيجيبه
الآخر : لا أدري ، ثم يظهر لهم وجه الأب سابقاً ووجه الابن مسبقاً
لاحقاً يجرى خلفه في شوطه . إن للعرب بمادح ومناقب وخصال مجد
يفاءخرون بها : الفصاحة والبلاغة في الشعر والخطابة ، الحلم والأناة ، إباء
الضيم ، ترك البغى ، الوفاء بالوعد ، عدم التعرض للجارات بريية ، الشجاعة
في الحرب ، النكاية في الأعداء ، الدفاع عن الحوزة ، حفظ الجوار ، العفة
عن السلب والغنائم ، المن على الأسرى والسبايا ، بذل القرى للعفاة والضيغان
اللعب بالقمار وبذل المال المسكسوب به في إطعام المساكين ولا سيما في زمن
الشتاء وسنى الجذب ، الوفاة على الملوك والجلوس معهم على أسرتهم وأخذ
جوازهم ، تحمل الديات وعقد الصلح بين القبائل المتحاربة وحقن الدماء
في نظير ذلك من خصال الكرم ، ومناقب المجد التي استدعتها حالة محيطهم ،
وطبيعة اجتماعهم ، والحنساء إنما تريد أن تقول : إن أباه وأخاها سواء في
الخصال والمناقب المذكورة . فلماذا لم تعددها وتقتصر على سرد الجمل الدالة
عليها مفرغة في قوالها الحقيقية ؛ وتقول أن أبي مثل أخي في كيت وكيت
من الأخلاق والأوصاف ؟ بل نراها أركبتهما جوادين ، وأنزاتهما الحلبة ،
وعقدت عليهما الغبار ، وحشرت حولهما النظارة ، وجعلتهم تحفق قلوبهم ،
وترتفع بالهتاف أصواتهم من أجل معرفة السابق منهما . يتساءل قارىء
شعر الحنساء عن كل هذا من فعلها فتقول له : لا جرم أن عدولها عن سرد
المحامد المذكورة — وإيراد كلماتها مستعملة في معانيها الحقيقية الموضوعة لها

— إلى هذا الأسلوب التمثيلي، يكون أوقع في النفس، وأشد تأثيراً على الحس. وأعظم تصوراً للغرض من ذكر الكلمات بمعانيها الحقيقية. ونقول أيضاً أن تمثيلها لمساواة أبيها وأخيها في مناقب المجد بهذا السباق، وما لابس من الأقوال والأفعال لا ينفي تلك المناقب، ولا يحط من شأنها، ولا يجعلها معنوية بحيث لا تشعر بها الحواس شعوراً حقيقياً، وإذا كنت ذا قدم راسخة في فهم لغة العرب وملاحى كلامهم. تشكر أشد الانكار أن تكون الخنساء تريد في شعرها أنه حصل سباق بالفعل بين أبيها وأخيها، وأن الغبار سطع، وصوت النظارة ارتفع، وأنهم تناظروا وتجاوزوا في أيهما السابق، وأن الأب سبق الابن أخيراً، وجاء الابن يجرى في أثره — كل ذلك على وجه الحقيقة لا شيء من التمثيل فيه — تشكر ذلك وتعدده حاطاً من قدر الكلام وقيمه البلاغية. وأنت في الوقت نفسه تعتقد أن حصول السباق بالفعل بين الابن والأب، أمر جازٍ الوقوع وفي دائرة الإمكان.

وهكذا ملذات الجنة ومسراتها وسائر ضروب النعيم فيها : فإن ماضيه الوحي الإلهي لها مثلاً — من وسائل راحتنا ودعتنا جميع أنواع لذوانا المعهودة لنا في دار الدنيا — لا يجعلها معنوية ولا روحانية .

وزد على ذلك أن ملذات الآخرة وأسباب نعيمها، لا يمكن للبشر ما داموا في الدنيا أن يفهموها بكنها وحقيقتها، فكانت الحاجة إلى ضرب ملذاتنا الدنيوية لها مثلاً، أمس من الحاجة في شعر الخنساء التي كان يمكنها أن تعدد خصال الكرم والمجد، بكلماتها المستعملة في معانيها الحقيقية، ثم تقول إن أخاها مثل أبيها في تلك الخصال .

ومحصل القول أن حمل آيات النعيم ووصف اللذائذ الآخروية على المعنى

الكسائي والأسلوب التمثيلي - كما وقع في قول الحسناء وأقوال كثيرين غيرها من
أقوال فصحاء العرب وبلغاتهم - لا يضر تلك الآيات ولا يحط من قدر بلاغتها
وقيمة إعجازها . بل هو على العكس يزيد رونقا وبلاغة وحسنا ، ويرفعها
درجات في معارج الإبداع والإعجاز

فصل

اعتراض وجواب

قد يقول قائل : إن ما ذكرته من حمل آيات النعيم ووصف الملذات
على التمثيل منظور فيه إلى الصناعة اللفظية ، والموازنة بين أساليبها ، واختيار
ما كان أحسن أسلوبا ، وأغزر بالبلاغة شؤبوبا ، من أساليب أهل اللسان .
وطرق التخاطب بينهم ، ولكن هل هناك من داع وجداني ، أو باعث عقلي
يرجع لنا الحمل على التمثيل ، وجعل ملذات الدنيا كنايةات عن ملذات الجنة ؟ وما
يضر في العقل إذا جعلنا ملذات الدنيا هي المقصودة بالذات ، من ذكر ملذات
الجنة وأنها هي التي يتنعم بها المتنعمون ، ويقصف في لذواها المؤمنون ، مادام
التنعم بعينها ممكنا ، ومادامت قدرة الله صالحة لذلك والجواب على هذا
أمور :

الأول

إن دار الآخرة دار الكمال المطلق ، وهي مغايرة بطبيعتها وستنها وجميع
نواميسها لدار الدنيا التي كل ما فيها زائل وناقص ومشوب بألم وتنغيص .
فتكون ملذات الدار الآخرة ، وهي الجنة مغايرة بحقيقتها للملذات الدنيا

ولأسباب النعيم التي فيها . وقد أفصح عن هذا سيدنا ابن عباس رضى الله
عنهما فقال ما نصه : لا يشبهه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا الأسماء ،
وفي رواية عنه : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، وهذا صريح في أن
الوحدة بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وحدة مشاركة بالاسم ، لا وحدة
مشاركة بالسكنة والجنس . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله
عنه قل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل أعددت
لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر
مصدق ذلك في كتاب الله : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء
بما كانوا يعملون . . وسئل صلى الله عليه وسلم : هل في الجنة إبل ؟ ، فقال
للسائل : إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتئت نفسك وقرت عينك ،
وهذا هو الجواب الحق في أمر ملذات الجنة ، وأسباب نعيمها ، لا يحد
إلا عن مثله صلى الله عليه وسلم فالمتنعمون في الجنة يرون في ملذاتها ما لم يروه
قط في ملذات دار الدنيا ، فهي إذن غيرها وليسكن لها اسمها ومشاركتها لها
بالاسم لا يجعلها هي .

وهذا فسر بعض المفسرين قوله تعالى (وأتوا به متشابها) فقال : أتوا
برزق الجنة متشابها بالاسم مع رزق الدنيا أما هذا فغير ذلك ، وأصرح من
هذه الآية في الدلالة على ما ذكرنا الآية الأخرى وهي قوله تعالى (مثل الجنة
التي وعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه
وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى) فهو تعالى جعل ما في
الدنيا من خمر ولبن وعسل مثلاً لما في الجنة يقر بها إلى أذهان المؤمنين
ويصور لهم ما فيها من الملذات التي لا يمكن أن تعقل إلا بعد الموت ، ودخول

الجنة ، وانظر كيف قال مثل الجنة كذا وكذا ولم يقل الجنة هي كذا وكذا

الثاني

ذكر الوحي مشتهيات ومسرات، وأسباب لذوى وقصوف ونعيم، يتنافس بها العرب المخاطبون لذلك العهد ، ويعديونها من أكرم الملهذات ، وأطيب الطيبات : من مثل الخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل ، ومن مثل أساور الفضة والذهب ، ومن مثل ثياب الحرير الخضراء ، ومن مثل لحم الطير والحور والكأس الدهاق . واسمع ما قاله لقيط بن زرارة سيد بني تميم يحرض قومه على الحرب يوم جيلة

إن الشواء والنشيل والرغف وصفوة القدر وتعجيل السكتف
والفينة الحسناء والكأس الأنف للطاعنين الخيل والخيل خنف

(الشواء) اللحم المشوى (النشيل) اللحم النضيج المذبول من القدر
(صفوة القدر) مختار ما فيها (تعجيل السكتف) لحم السكتف أطيب اللحوم
عند العرب . (كأس الأنف) التي لم يشرب منها قبل ذلك (خنف) جمع
خنوف : الفرس تسمى^(١) في شق وذلك يكون منها وقت المطاردة . يقول
لقيط إن هذه الأشياء والتمتع بها إنما يستحقها الأبطال الذين يحققون شجاعتهم
وصبرهم يوم الطعان ، ومصالاة الأقران : وقد راعى الوحي أخلاق العرب
وما ألفوه من المرافق وأسباب الملهذات الجسدية ، في طورهم الاجتماعي الذي
كانوا فيه لحين نزول القرآن ، كما راعى أساليبهم وملاحظتهم في مخاطبتهم ، فذكر
طائفة من الملهذات وأسباب المسرات المعهودة لديهم ، ثم مثل لهم ملهذات
الآخرة بها ، تقريبا لها من أفهامهم ، ومتناول أذهانهم . ولو قلنا إنها هي

(١) تسمى = تبطىء

نفسها الموعود بها في الجنة للزم منه نسبة النقص إلى دار الكمال : إذ أن الأمم من غير العرب ، لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة ، توصلوا بالعلم والصناعة والاختراع واكتشاف نواميس المادة : إلى أنواع من الأشربة الروحية ألد وأطيب وأفسك من الخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل وإلى ضروب من الحلوى والزينة أثمن وأنفس من أساور الذهب والفضة ، وإلى صنوف من اللبوس والثياب أجمل وألين من ثياب الحرير الأخضر ، وإلى أشكال من المتاع والأثاث والمساعدون وسائر المرافق (موبيليات) أروع وأنفع وأوفى بالغرض — الذي يتطلبه الإنسان في معيشته المنزلية — من الآنية والصحاف والآكواب والأرائك والنفارق والزرابي التي كان يستعملها العرب ، لحين نزول القرآن ويفهمونها من آياته . فإذا كان المراد بالملذات وأسبابها المذكورة في القرآن ، أعيانها وحقائقها اللغوية كان لبعض البشر من أبناء هذا العصر والعصور الآتية ، أن يقولوا : كيف تعدنا ياربنا بنعيم وملذوذات ، هي جهد أقوام أميين في طور بداوتهم ، وهما نحن في طاعتنا في هذه الدنيا الفانية أن نصطنع أنفسنا وأحسن منها . بل تعدنا أحيانا بشيء تمجده إذواقنا ، وتعافه نفوسنا ، كالخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل . هذا ويظهر من تطورات العمران البشري ، وترقيات المدنية الحديثة وصعودها آناً فآناً ، في معارج الاختراع والاكتشاف واتقان الصناعة ، أنها ستصل من وسائل الترف والتنعم ، وأسباب استكمال الملذوذات الجسمانية حداً قد لا تتصوره العقول اليوم ، كما كانت من قبل لا تتصور ، لإمكان طيران الإنسان في عنان السماء .

فالقول بأن ما ذكر في القرآن من ضروب اللذة ووسائل الدعة والخفض

والنعمة سيكون هو بحقيقته لنا في الجنة - قول لم يراع فيه كمال تلك الدار الآخرة التي وعد بها الله أوليائه والابرار من خلقه . بل لم يراع فيه السر الذي أنزلت من أجله آيات الوعد بالنعيم الآخروي : ألا وهو الترغيب في الطاعة وحفز الهمم نحو العمل الصالح .

أما إذا جعلنا ذكر تلك الملذات في الآيات من باب التمثيل بها ، وأن ما خباه الله لأهل طاعته من المسرات وضروب الملذات لا يكتنه كنهه ، ولا يحاط بوصفه ، كان ذلك أليق بالدار الآخرة ، وأشد ملائمة لمقاصد القرآن الذي أنزل للأمينين . ومن ثم كان وصف الأمية مراعى في تعاليمه وأحكامه وسائر ما قرره من الشرائع ، وقد عقد الإمام الشاطبي لهذا المعنى فصلا في كتابه (الموافقات) استدلل به على ما ذكرنا ، من ذلك قوله : « وبين (أى القرآن) من ما كولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم (أى عند المخاطبين الأمينين) كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعشاب وسائر ما هو عندهم مألوف ، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى ، وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم بل أجل ذلك في لفظ الفاكه ، اهـ بلفظه .

وما قاله الشاطبي في مواد الأكل ، نقول مثله في أدوات النقل قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفر ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) .

فانظر كيف آمن الله على أناس ذلك الزمان ، بما ألفوه وعرفوه من

من وسائل النقل فذكر لهم الأنعام : أى الإبل ثم الخيل والبغال والحمير دون القطر البخارية والتراقات الكهربائية ، وغير ذلك من سيارات وطائرات بل أجمله كله فى قوله (ويخلق ما لا تعلمون) .

الثالث

إن الوصائف والمطاعم والمشارب والملابس والأواني وضروب الزينة هى مما يزهد فيه الكثيرون من أهل الدنيا — لا تمثل لك بالأنبياء والصدّيقين والرّبانيين بل ببعض ذوى النفوس الكبيرة ، والعقول الثاقبة ، والحكمة الرائعة ، من أبناء الدنيا ذاتها الذين قلما يفكرون أو يشغلون للآخرة — هؤلاء أنفسهم يعجبون من كونهم خلقوا مقهورين فى دنياهم على تناول الطعام والشراب وعلى إنفاق ساعات من أعمارهم فيها وفى النوم — ولا سيما أمر الملابس واستخدام النفس لها — ويتمنون لو كانوا خلقوا أنزه وأكرم من أن يقفوا هذه المواقف التى يشبهون فيها العجاوات . فإذا كان هذا شأن عتلاء البشر وحكامهم بالنسبة إلى ملذات الدنيا ومبلغ اشتغالهم منها ، وهى من مقومات حياتهم ، فكيف يكون الحال إذا قلنا لهم : إن ربكم أعد لكم فى دار الكرامة والحياة السرمدية عين هذه الملذات جزاء طاعتكم ، وحسن أعمالكم ، لا جرم أنهم يشعرون بشيء من الغضاضة فى أنفسهم ، مذ يسمعون أن مكافأتهم فى الآخرة ستكون بما فيه يزهدون فى الدنيا ، أما إذا قلنا لهم إن مسرات الجنة وملذاتها بما لا عهد لكم به وإن الوحي الإلهى تنزل فتتمثل تلك المسرات والملذات بما ألفه البشر ، وأولعوا به من المأكّل والمشارب والملابس والملابس تقريبا لها من عقولهم — إذا قلنا هذا هؤلاء كان قولنا أوقع فى

قلوبهم ، وأدنى لتحريك عواطف الطاعة والإذعان والإيمان في نفوسهم .
وصفنا لك مواقف الحكماء العقليين إزاء ملذات الدنيا ، ودونك ما قاله
أبو حامد الغزالي في وصف مواقف الحكماء الإلهيين إزاء تلك الملذات :
« لم يبق للدنيا في قلب الواحد من هؤلاء قرار : حتى إنه لا يحب الأكل
والشرب أيضاً ، بل تكون رغبته فيهما كرغبته في قضاء الحاجة ، من
حيث أنه ضرورة الحياة : فلا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على
العبادة . ويتمنى لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبق في
قلبه حظ في الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوباً
عنده لأنه ضرورة دينية فلا يكون له هم إلا الله تعالى اهـ . ويقول بلغاء الحكماء
في النعي على المنغمس في الملذات الجسدية حاله وانغمسه « فلان لا هم له
سوى الاكتراش والاقتراش ، وفلان اكتفى من دنياه بحاجة قبقة وذنبه ،
(وفلان يسعى لغاربه أى لبطنه وفرجه) . وقال سيدنا علي بن أبي طالب
في كتابه إلى عامله سهل بن حنيف يؤنبه على شهود مآدبة دعاه إليها بعض
أغنياء البصرة :

« ولو شئت لا هتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح
ونسأج هذا القز . ولـكن هيات أن يغلبني هواي ، أو يقودني جشعي ،
إلى تخير الأطعمة . ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص .
ولا عهد له بالشبع . أو أبيت مبطاناً وحولى بطون غرثي ، وأكباد حري
أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبیت ببطنة وحوالك أكباد تحن إلى القد

أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره
الدهر ، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش . فما خلقت ليشغلني أكل

الطبيات : كالبهيمية المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقمها تكثرش من أعلافها وتلهو عما يراد بها، وقد اطلعت أخيراً على كتاب (تاريخ حكماء الإسلام) تأليف ظهير الدين أبي الحسن البهقي - وهو من السكتب النادرة جلب من خزائن أوربا إلى دمشق مصوراً بالفوتوغراف - وآخر من ذكره المؤلف في كتابه من حكماء الإسلام (الأمير السيد الإمام زين الدين الحسيني الجرجاني الطبيب فقال عنه : إنه أحيا الطب وسائر العلوم بتصانيفه اللطيفة التي سارت بها الركبان، وهي كتب مباركة، ومنها كتابه في الرد على الفلاسفة . قال المؤلف وقد رأيت الإمام زين الدين بسر خمس سنه (٥٣١) بعد أن بلغ من العمر أطوريه (أى أقصاه) ثم قال ومن فوائده رسالة له نوردها بتمامها ونختم بها السكتب وهي :

مالى أراك يا أخى - أيدك الله وإياى بتوفيقه - شديد السكون إلى هذه الدنيا الزائلة ، والدار الفانية ، كثير الميل إلى ترفيه هذا الجسد المظلم السكيف ، الذى هو أجمع مركب وأخبث مسكن للنفس ، سهل الانقياد لقوتيك العَصَبِيَّة والشهوانية اللتين تحركك إحداهما إلى السبعية والأخرى إلى البهيمية ، صعب المقادة ، عسر الإجابة لقوتك العاقلة التى تؤويك جنَّة المأوى ، وترقيك إلى الدرجة العليا ؟ ألعلك قد اتخذت بل اغتررت بمباشرة هذه اللذات التى كلها فى الحقيقة آلام وأى آلام ؟ أما علمت أن اللذات الدنيوية كلها فى أكل الطيب وشرب العذب ولبس اللين ، وركوب المهمليج (المذلل المنقاد من البرازين) وقهر العدو ، والتمتع بالنساء ؟ وهذه كلها حاجات متعبة وخصوصاً للعقلاء ، وضرورات مزعجة للمتيقظين من العلماء ، لأن الأكل والشرب إنما هما لدفع ألم الجوع والعطش ، واللبس أيضاً لدفع

ألم الحر والبرد ، والركوب لمنع تعب المشى ، وقهر العدو لطلب النشقى من
ألم الغيظ ، والنكاح إنما هو طلب لذة بدنية بمباشرة عضو حقه أن يستر
ويستحي من كشفه ، وخصوصا من الرجل الرزين العاقل الذى يكره أن
يكشف عن ساعده مثلا ، ثم فى تلك الحال يحتاج إلى كشف عضوه المستور
وربما دعاه استلذاذه إلى كشف مثل ذلك العضو من المفعول . فما أخس
هذه اللذة عند العاقل المتيقظ ، وما أهونها عليه وما أقبحها عنده ، وما أفضحها
لديه . هكذا ثم لا خلاف أن الحاجة غير طيبة ولا لذيدة ولا مطلوبة
ولا محبوبة ، وهذه الأحوال أعنى اللذات كلها كما ترى حاجات ، والحاجات
الآم ، ولو كانت فيها فضيلة لما استغنت الملائكة المقربون عنها ولا تنزهت
منها وكل لذة فى أن لا يؤلم جوع ، ولا يؤدى عطش ، ولا يتعب مشى
ولا يؤذى حر ، ولا برد ، ولا ينغص العيش حرّدا ولا غضب
(كأن معنى قوله وكل لذة فى أن لا يؤلم الخ : وما معنى اللذة من تلك
اللذات وكل شأنها هى أن لا يؤلم جوع الخ) ولقد صحبت من
إذا جاع صبر طويلا ، ثم إذا قدم إليه الطعام بسكى ثم أكل ، وكان يقول
« اللهم أنت خلقتنى وأحوجتنى ، وبالخطايا أكرمتنى ، فهب لى ما
وعدتنى » وكان هذا الكلام شكاية من هذا الصديق لآلم الحاجة . نعم من
عرف كنهه ألم الشيء فإن تألمه به يكون أشد وأكثر وأنتم وأبالغ . وقد
كتبت إليك هذه منبهالك وعالما بأنك تنبيه بأدنى إشارة وتحريك لسان .
وأنا منذر بأن استعمل هذا الدعاء وأقول (اللهم إني أسألك غير متحكم عليك
أن تكشفنى مؤونة هذا الجسد الذى هو سبب كل مذلة ، وأصل كل حاجة
والجاذب إلى كل بلية ، والطالب لكل خطية ، وأن تيسر الخلاص منه ، على

أسهل وجه ، وأفضل حال إلى خير معاد ، وأحسن مآل ، بمنك وفضلك ،
يا ذا المن والإفضال ، فإن رأيت أن توافقني باستعماله تخفف رحلك ، وشمر
ذيلك وأزح علتك ، وقصر أملك ، وطهر خلقك ، وثق طرفك ، تبلغ وتسلم
وتسد ولا تندم . والسلام) انتهى . أقول فمثل هذا الحكيم الإلهي الذي
وصف اللذات بما وصفها وختم كلامه بهذا الدعاء الذي يتضمن التنزه عن
الجسد ولذاته . هل يعقل أنه في دار الجنان يقابل بمكافأة وإحسان ، من
شكل اللذائذ التي هرب منها ، ودعا الله أن ينقله إليه من شدة كرهه لها ،
وترفعه عنها ؟ اللهم لا . وما أحسن ما قاله شهاب الدين السهروردي القليل في
قصيدته الحائية .

قم يا نديم إلى المدام وهاتها فبحانها قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بدن ديانة لاخرة قد داسها الفلاح
واختلاف أنظار علماء الإسلام في هذه اللذات وهل هي روحانية أو
جسدانية ؟ وهل من دأب الربانيين الاهتمام بها إذا كانت جسدية ؟ هذا
الاختلاف كان موجودا قديما بين علمائنا وكلامهم فيه مبثوث في ثنايا
المصنفات التي تركوها .

وأصرح ما جاء في هذا المعنى ما كتبه أبو حيان التوحيدي ، وبني عليه
إحدى مقابساته في كتابه الذي سماه (المقابسات) ص ١٩٤ طبع مصر سنة
١٩٢٩ وهي المقابلة الخامسة والثلاثون :

(٢٥)

(مقابسة)

(في عجيب شأن أهل الجنة وكيف لا يملون النعيم والأكل الخ)
(سمعت أبا إسحق النيصي المتكلم وكان من غلمانُ جعل ، يقول :
ما أعجب أمر أهل الجنة ؟ قيل : وكيف ؟ قال : لأنهم يبقون أبداً هناك لا عمل
لهم إلا الأكل والشرب والنكاح . أما تضيق صدورهم ؟ أما يكلون ؟ أما
يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التي هي مشاكلة لحال البهيمة ؟
أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟) قال أبو حيان (فأعدت على أستاذي أبي
سليمان المنطقي قوله بنصه ، فقال في الجواب : إنما غلب عليه (أى على النيصي)
هذا التعجب من جهة الحس لا من جهة شيء آخر . وهكذا كل ما فرض
بالحس أو لفظ بالحس ، لأنه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملل والكلال
ويحمل على الضجر والانقطاع ، وعلى السآمة والارتداع ، وهذا منه في ذوى
الإحساس ظاهر معروف ، وقائم موجود ، وليس كذلك الأمر في المعاد إذا
فرض من جهة العقل لأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ولا
يمسه اللغوب ، ولا يناله الصمت ولا يتحيفه الضجر ، وهكذا حكمه في الشاهد
الحاضر ، والعيان القاهر ، لولا عقل النيصي ونظرائه . ألم يعلم أنه في هذه
الدار على شوبها وفسادها وكدرها وبثورها ، كان العقل لا يكل معقوله
أبداً ولا ينقضى منه أبداً البتة ، ولا يطلب الراحة عنه بوجه ؟ بل كان العقل
إذا وجد معقوله ، وتوحد به صار هذا قدماً حين لا يوجد بينهما بين بحال .
فكيف إذا كان المنقلب إلى علامه الصرف الذي لا حيلولة ولا تغيير له ، وهو

الوجود المحض والأمر الصرف ، والشئ الذى كلما عرفته با لصفة بعد الصفة كان عنها أعلى ، وكلما أوضحته بالعبارة بعد العبارة كان عنها أخفى .

ويظهر من جواب المنطقي ، أنه يعتقد أن أهل الجنة إنما يلامسون لذاتها بعمولهم الباطنة لا بحواسهم الظاهرة ، والعقول لا تمل ولا يعترها لغوب كما هو مشاهد من حالها في دار الدنيا .

هذا ما قاله أبو حيان ونحن في رسالتنا هذه لا نقول بما قاله من أن المتنعم هو العقول بل الحواس . ولكن المتنعم به ملذوذات تناسب تلك الحواس في تلك الدار ، وليست كملذوذات حواسنا الدنيوية في دارنا الدنيوية . وقال ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق) : (وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما في اللذات الحسية ، وأنها هي خير المطلوب والسعادة القصوى ، وظنوا أن جميع قواه الأخرى ، إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها ، وأن النفس الشريفة التي سميها ناطقة إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ويوجهها نحو هذه اللذات ، لتسكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية . وظنوا أيضا أن قوى النفس الناطقة أعنى الذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية : قالوا : وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح ، اشتاق إليها وأحب معاودتها ، فقد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هي اللذات وتحصيلها ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم ، جعلوا النفس المميّزة الشريفة كالعبد المهيّن وكالآجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية ، لتخدمها في المآكل والمشارب والمناكح وترتيبها لها وتعديلها ^(١) لإعدادها كاملا موافقا . وهذا هو

(١) أعدل الشئ أقامه وسواه

رأى الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط ، وإلى هذه الخيرات
التي جعلوها غايتهم تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل .
وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم ، وإذا خلوا
بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فإنما ذلك منهم على سبيل المتجر والمراحة
في هذه بعينها . كأنهم تركوا قايلا ليصلوا إلى كثيرها ، وأعرضوا عن
الفانيات منها ليلبغوا إلى الباقيات . إلا أنك تجدهم مع هذا الاعتقاد ، وهذه
الأفعال إذ ذكر عندهم الملائكة والخلق الأعلى الأشرف ومازهمهم الله عنه
من هذه القاذورات ، علموا بالجملة أنهم أقرب إلى الله تعالى ، وأعلى رتبة من
الناس وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات البشر . بل يعلمون أن خالقهم
وخالق كل شيء الذي تولى إبداع الكل ، هو منزّه عن هذه الأشياء متعال عنها
غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من إيجادها ، وأن الناس يشاركون
في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان
وإنما يناسبون الملائكة بالعقل والتمييز) إلى أن قال : (إن الإنسان ذو
فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة ، وذو فضيلة
جسمانية يناسب بها الأنعام لأنه مركب منها : فهو بالخير الجسماني الذي
يناسب به الأنعام مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ، ليعمره وينظمه ويرتبه
حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على السكّال انتقل إلى العالم العلوي ، وأقام فيه دائما
سرمدًا في محبة الملائكة والأرواح الطيبة)

بقي أن نذكر ما قاله إمام المتأخرين أستاذنا وقدوتنا في أبحاثنا الشيخ
محمد عبده رحمه الله في تفسيره على (جزء عم) عند قوله تعالى في صفة أهل
الجنة (وجوه يومئذ ناعمة لضعفها راضية . في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية)

ففسر معنى كون الوجوه ناعمة بأنها ذات بهجة وحسن . وفسر معنى كونك لا تسمع في الجنة لاغية : أى لا تسمع فيها كلاما فاحشا ، ولا قولا باطلا . ثم قال (فنعيم أهل الجنة ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لانعيم أهل الجهل والحق ، فاعتبر بهذه الحكمة ثم انظر كيف قدم من الأوصاف للجنة وضروب نعيمها ما هو روحانى يليق بأرباب النفوس العالية ، والمقامات الرفيعة في العرفان وكال الوجدان ، فذكر الرضى بالسعى ولذته فوق اللذائد فإنه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله ، ثم أتبعه بالتزهد عن اللغو وما لا فائدة فيه وهو أسمى ما يطلب الكامل أن يحى به)

قال رحمه الله ثم جاء الوحى بعد ذلك (أى بعد وصف اللذائد الروحانية) بما له شبه باللذائد الجسمانية المعهودة لنا في هذه الحياة فقال تعالى :

(فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) فبعد أن فسر الشيخ هذه الملذذات المسادية التى تتمتع بها الحواس الجسدية قال رحمه الله (كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهية واللذة وإلا فإن نعيم تلك الدار الآخرة بما لا يشبهه في هذه الدار نعيم) .

ومنه يفهم أن شيخنا رحمه الله يذهب إلى ما تقرر في هذه الرسالة وقد قاله هو مدججا مقموطاً . فروينا نحن مفصلاً مبسوطاً .

لا جرم أن الملذذات التى يأنف من تناولها الربانيون والعقليون في دنياهم إلى هذا الحد من الأنفة والاشمئزاز ، جدير بأن لا يكون المراد منها - إذا وعدوا بها في آخرتهم - إلا ملذذات علوية ، لا ثقة بدار السكراماة الإلهية ، فبتلذذ الجسد بلذات تلائمه ، بما لا يمكن أن يتعقله

البشر بحقيقته إلا إذا صور لهم بصورة ما ألفوه واعتادوه من ملذونات الدنيا: كالأكل والشرب والملاسة، فكل ما يجب علينا اعتقاده من أمر هذه الملذات الجسدية إذن أمور :

(١) كونها مادية حسية يشعر بها الجسد .

(٢) كونها غير ممكنة للعقل بكنها وحقيقتها ، وإنما تتعقل بواسطة تشبيهها بملذات الدنيا ، عن طريق إطلاق أسماء هذه الملذات الدنيوية عليها .

(٣) كونها تبقى مغمورة بالملذات الروحية المعنوية التي يتنعم بها المؤمنون في الجنة مع الملذات الجسدية ، فمن شعرت حواسه بلذة جسدية في الجنة ، يشعر في الوقت نفسه بلذة روحية ، تكاد تتضاءل تلك اللذة الجسدية بجانبها ، وهذا كالجائع في دار الدنيا إذا أكب على طعام لذيذ بين يديه ، فإنه يلتذ به جسماً ، أما التذاذه به روحاً ، فإنه يختلف شدة وضعفاً باختلاف ثقافة الآكل ووزن عقله ، ودرجة تربيته ، فبعض الآكلين في الدنيا لا يخطر بباله وهو يأكل إلا لذة الازدراد ، بينما غيره يُشغل عن لذة الازدراد بلذة روحانية يثيرها في نفسه كبر عقله ، وسمو تربيته ، وبعد همته . ومثل فرحه بأن هذا الطعام يحياه الحياة الطيبة ، ويمنحه جمال الجسم ونشاط النفس ، ويقويه على العمل الصالح ، ومثل فرحه بالوسائط الشريفة التي يسرت له هذا الطعام وبقدرته على تحصيلها والظفر بها ، إلى غير ذلك من الوجدانات الروحية ، التي قد يهجم بها الرجل المتهذب وهواياً كل

ولا يخفى أن كل المؤمنين والمؤمنات ، يكونون في الجنة بشراً أسمى بما كانوا عليه في دار الدنيا من جهة كمال عقولهم ، وطهارة أرواحهم ، وصفاء جواهر

نفوسهم فلا غرو أن يكون شعورهم بالملذات المادية الممثل لها بالخمر ولحم الطير والخور والولدان ونحوها ، شعوراً يسمو بالروح إلى أفق الملائكة الأبرار شعوراً مغموراً بلذات روحانية أجملها الوحي الإلهي ، أو رمز إليها في آية (وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) ونضارتها هي إشاشتها وظهور بريق السرور على قسماها ، حينما تنال لذة اللقاء ، ولذة الرضى ، ولذة المعرفة بانكشاف ما وراء الحجاب ، ولذة الطمأنينة إلى حياة جديدة يتنعم بها المؤمن في القرب من خالقه إلى أمر لا يقدر بالأحقاب . قال أبو يزيد البسطامي : لو أن الله سبحانه وتعالى حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

الرابع

إن المطاعم والمشارب والملابس وحاجات الجسم المختلفة ، إنما خلقت في دار الدنيا لتكون من جهة أسباب حفظ هذا النوع البشري وبقائه ، فيعمد الأرض إلى المدة التي كتب الله له أن يعيش فيها ، ولتكون من جهة أخرى أدوية وعلاجات ، يتناولها البشر تسكيناً لآلام الجوع والعطش والشهوة والتعب والملل التي تعترهم ، وتهديئة للقاق النفسى الدال على الفناء البشري فيهم . لكن تلك الأدوية والعلاجات أصبحت بحكم اعتيادها لذة يتمتع بها الناس وهذا كالسقوط الذي كان يدس في الأنف الاستشفاء ، ثم صار أمراً يتلذذ به كما يتلذذ بالفاكهة والحلوى ، وحقق بعض الأطباء أن نبات التبغ الذي يشرب اليوم دخاناً ، إنما كان يستعمل في أول الأمر بصفة علاج تشير به الأطباء في بعض الأمراض ، ثم اعتيد حتى أصبح لذة يبذل المال الطائل في

تحصيلها بل تذهب الحياة الغالية أحيانا في سبيلها . فإذا كانت المطاعم والمشارب وبقية ضرورات الجسد بمنزلة علاجات للبشر كما وصفنا . فهل يليق بالإله الحكيم أن يقدم الأبرار من خلقه — الذين هم ضيوفه في دار كرامته — تلك الأدوية والمسكنات لتكون بمثابة جوائز ومكافآت على ما قاسوه من ضروب الطاعات والقربات ؟ ألا يكون المنتظر منه تعالى أن يهيء لوفود دار كرامته من وسائل النعيم واللذوى ، وهم في طور صحتهم وعافيتهم غير ماهيأ لهم ، وهم في طور مرضهم وعلتهم ، فلا غرو إذن أن تكون ملذات النعيم الموعود بها ملذات كريمة تليق بتلك الدار دار الصحة والسلامة .

لكن الله تعالى لطفًا منه وتكرما ، سمى تلك الملذات بأسماء الأدوية والعلاجات : التي اعتدنا التلذذ بها في هذه الحياة الدنيا ، مسارعة إلى تفرجحنا وتبشيرنا وتقريبنا لحقائق علم الغيب من متناول عقولنا : مثال ذلك أن يولد لك ولد ، قد أصيب منذ يوم ولادته بأمراض مختلفة فيعطيه الطبيب لتسكين آلامه علاجات ، ينفر منها طبعه ويستكرهها ، فيحلبها الطبيب له بالسكر والعسل ، وبذلك يسيغها ، ويسهل عليه تجرعها . ثم يشب الطفل ويكبر والأمراض ملازمة له حياته . وقد اعتاد تلك العلاجات . واستحلى مذاقها وتراه يعمل ويضجر أحيانا من مرضه المزمن الطويل ، فتبشره بأنه سوف ينتقل إلى طور ثان من الصحة والعافية . ثم تريد أن تصف له الملذات التي تنتظره في ذلك الطور . فإذا تقول له ، وهو لا يعقل من الملذات سوى العلاجات ، التي كان يسكن بها آلامه في طور علته ؟ لاجرم أنك تضطر أن تمثل له ملذاته المعدة له في طور صحته ، بتلك العلاجات التي ما زال يتناولها ويستحلى طعامها في طور علته . وإن تمثيلها له بذلك ليس كذبا ولا خديعة

ولا يفيد أن الملهوذات الموعود بها ليست محسوسة ولا جسمانية ، وكل ما فى الأمر أنك خاطبته بلفته ، وقربت مالا يمكنه أن يتعقله إلى دائرة فكرته ، وحملته بذلك على الإيمان والطاعة وفعل الخير ، وما ترضاه له من الأعمال الصالحة .

الخامس

الفناء والخلود لكل منهما طبيعة

هذا الأمر الخامس متمم أو موضح لبعض ما سبق ذكره فى الأمر الرابع . وذلك بأن يقال : إن الدنيا دار زوال والآخرة دار خلود ، ولكن قضت الحكمة الإلهية فى دار الدنيا مع كونها دار زوال أن يظل نوع الإنسان المتسلط فيها باقيا إلى ميعات زوالها : فالمطاعم والمشارب والمناكح إنما خلقت فى هذه الدنيا تنفيذًا لإرادة الله فى بقاء النوع البشرى إلى يومه الموعود ، فهى إذن ضرورية للبشر كي يتوسلوا بها إلى بقائهم أحياء يعمرّون هذا السكون . ولو قدر لهم الخلود فى هذه الحياة الدنيا ، لما كانوا فى حاجة إلى طعام ولا إلى شراب ولا إلى وقاع بالطبع : يأكلون ويشربون لئلا يموتوا ، لكنهم لا يموتون ، فلا حاجة إذن إلى أن يأكلوا ولا إلى أن يشربوا ، يتزاجون لأجل أن يولد لهم أولاد يخلفونهم بعد موتهم فيبقى السكون عامرا بهم إلى يومه المقدور ، فإذا كانوا لا يموتون فلا تكون ثمة حاجة إلى النكاح ولا إلى الذرية : لأن الدنيا معمورة بمن فيها من البشر . والأنبياء والصالحون أنفسهم يعرفون هذا ويعلمون به . ويرشدون إليه : فهم لا يأكلون ولا يشربون لذات الأكل والشرب ولذاتهما ، وإنما للتوسل بهما إلى استمرار هذه الحياة

الدنيا عملاً وخضوعاً للشبهة الإلهية ، وهم أيضاً لا يعرفون الاسم لما في هذه المعرفة من اللذة بل لما فيها من ثمرة الولد الذي أرادت العناية الإلهية أن يخلف أباه ويقوم مقامه في عمارة هذا العالم وبقائه إلى أجله المحدود .

إذن الأكل والشرب والجماع تشبیه أن تكون نتائج لعدم خلود هذا السكون لكنها نتائج متقدمة وسابقة عليه ١١

فلو لم يقدر علينا الموت لما قدر لنا أن نأكل ونشرب ونلامس النساء ، كما أنه لولا الموت لما ركز في نفوسنا ما ركز فيها من أخلاق وطباع وغرائر . وهذا ما أشار إليه المتنبي في قوله :

(سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب)
(ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب)

يقول سبقنا الناس قبلنا إلى الوجود في هذا السكون ، فلو بقوا أحياء من دون موت لما أمكننا نحن الموجودين اليوم أن نجد محللاً نعيش فيه أو نقف فيه في هذه الدنيا ، بل لما كنا نتفاضل بما تتفاضل فيه من المناقب والحمد كالشجاعة والجود والصبر أى لولا الموت لما كان لهذه الصفات معنى ولا تحقق .

والخاص أن الموت وعدم الخلود في هذه الدار الدنيا هو السبب فيما نحن عليه من أحوال وصفات وطباع وأخلاق ، وأننا لم نأكل ونشرب ونواقع في هذه الدنيا إلا بسبب ما قدره الله من عدم الخلود فيها .

أما الدار الآخرة الخالدة التي قدر لنا فيها الخلود ، أتحسبون أن يجعلنا الله فيها محتاجين إلى طعام وشراب وزواج كما كنا في حاجة إليها في الدنيا الفانية؟

بل أنحسبون أن يكون لنا من الطبايع والغرائز والأخلاق والأطوار ما كان لنا مثله في هذه الدار الدنيا ؟

كلا بل لنا في دار الخلود طعام وشراب ووقاع . وصفات وأخلاق تناسب في كلها وحقيقة معناها معنى الخلود الذي تتمتع به ، كما كان لعدم الخلود في دار الدنيا طعام وشراب ووقاع وصفات وأخلاق وطبايع تناسبه ويلتحم معناها بمعناه .

السادس

إن مما اشتملت عليه الجنة من الملهذات الحور العين اللواتي يتمتع بهن المؤمنون فوق تمتعهم بزوجاتهم الديويات وذلك جزاء إيمانهم . وقد سمعت يوما فاضلا فطنا - من غير أبناء ملتنا - يسأل شيخا صالحا من شيوخنا قائلا : ما بال المؤمنات لا يتمتعن في الدار الآخرة بغلمان من الحور العين ، فوق تمتعهن بأزواجهن الآدميين جزاء إيمانهن ، كما يكون شأن المؤمنين مع الحوريات في تلك الدار ؟ فأجابه الشيخ بكل سذاجة : إن الرجال قوامون عليهن حتى في الجنة ، ولكن هذا الجواب لم يقنع السائل . بل قال له : دأهم قوامون عليهن حتى في الجنة ؟ ، فإذا قلنا : إن التمتع بالحور العين الموعود به في الآخرة ليس أمره على ما نعهد في دار الدنيا ، وإنما هو كناية أو تمثيل لأنواع من الملهذات الآخروية لا يمكن لنا أن نتعقله بحقيقته ونحن في هذه الدار إلا بما ضرب الكتاب العزيز له مثلا من الحور العين . فحينئذ لا يتوجه علينا اعتراض ذلك المعترض إذ نقول له : إن هؤلاء الحور عبارة عن ملأ

أخروية بالغة حدها من التأثير في نفوسنا ، وإن التمتع والتلذذ بلذة الحور العين ليست على النمط والطريقة التي تعرفها في نساء الدنيا ، فمن ثم يصح أن يتناول تلك اللذة ويشارك في الشعور بها مجموع المؤمنين والمؤمنات ، الذين أحلهم الله بمحاج الجنات .

ومما يحسن إبراده هنا بل مما يصح الاستشهاد به في مسألتنا ما روى أن أبا العتاهية لما قال في (عتابة)

(إن الملك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك)

(لهذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك)

شنع عليه منصور بن عمار (البصري الواعظ والزاهد المشهور) وقال له : أتصور الحور على مثال امرأة آدمية ؟ والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى مثال .

وقال أبو العتاهية في عتابة أيضاً :

(كان عتابة من حسنها دمية قسٍ فقلت قسّها)

(يارب لو أنسيتها بما في جنة الفردوس لم أنسها)

فشنع عليه منصور أيضاً وقال : إنه يتهاون بالجنة ويتبذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون . وكان طعن منصور على أبي العتاهية يشيع بين العامة فيلحق (أي أبو العتاهية) منهم بلاء وشدة مذبذب في شعره أن الحوريات على مثال الآدميات ، ويستعين بنعيم الجنات ، بمثل تلك التصريحات .

على أن الناس في عصرنا هذا أصبحوا كأنهم قد تأثروا بقول الزاهد العابد (منصور بن عمار) في العصر العباسي . فكما كان أهل ذلك العصر

(بتأثير منصور) يستهزئون بما قاله أبو العتاهية من أن معشوقته على مثال حور الجنان ويعدون ذلك منه تهاونا بالجنة ، كذلك الناس اليوم أصبحوا — ولكن بشكل آخر وبمقياس واسع — يستهزئون بكون حور الجنان وولداتها وخمرها وعسلها من جنس ما في الدنيا وقد عمت السخرية من ذلك بين طبقة خاصة من أبناء العصر ، يتخللها طائفة ليست بقليلة من أبناء الإسلام من ذلك قول السيد جميل صدقي الزهاوي من أرجوزة نشرتها له جريدة (السياسة) المصرية :

أما الجنان فإنها مقصودة المتبتل
ماشئت من حور وولدان وطيبة ما كل
في كل ناحية شمردلة السكل شمردل
أما الصراط فإنه فوق الجحيم كمنجل
وغراره في ظهره كشبا الحسام المفصل
أو أنه جسر كفنو النخلة المستعكل

وإننا نرجو أن يكون السيد الزهاوي ومن آمن بكلامه من إخواننا المسلمين ، إنما يسخرون من نعيم وعذاب أخرويين ، يقعان بوسائل وأسباب من مثل أسباب الدنيا نفسها ، لكنهم يؤمنون بنعيم وعذاب على نمط ما شرحناه وبرهنا عليه في رسالتنا هذه .

فصل

(التسامح واختلاف الأئمة من مزايا الإسلام)
ما قاله الفريق الثالث في تفسير « ملذات الجنة » ، وأنها من قبيل التمثيل

— ليس بالواجب على كل مسلم اعتقاده والتعويل عليه، في تفسير تلك الآيات .
وتعقل هذه الملذات . وإنما هو قول من أقوال اعتاد الإسلام بسماحته وسعة صدره أن يسمعها ، وينغض عنها في كثير من عقائده وأحكامه ، ما دام المختلفون والمفسرون لم يتخطوا حدود الشرع ، ولم ينكروا أصلاً مجمعا عليه من أصوله . وقد قال السيد الشريف المرتضى : على المتأول أن يورد كل ما يحتمله الكلام بما لا تدفعه حجة ، وأن يرتب بعضه على بعض في القوة والوضوح ، فالبحث جسماني ، واللجنة مخلوقة ثابتة في الخارج ، وملذاتها حقيقية تحس بها المشاعر وإن فيها خيرا وعسلا . وهنا يفرق الفهمان . فقائل يقف على الظاهر ، ويذهب إلى أن الخمر والعسل هما السائلان الأحمران المعروفان بخصائصهما الكيماوية ، لكنهما من أغرأنواعهما التي ما عهدنا مثلها في دار الدنيا . وقائل آخر يلتقل — بحبل اللغة العربية وأسرار بلاغتها — من الظاهر إلى الباطن ، ويذهب إلى أن الخمر والعسل ليسا من الوسائل التي تحس حسوا ، وإنما هما مسرتان أو لذتان جسديتان سماهما النار بنا — لأجل أن نتصورهما بالجملة — خيرا وعسلا . وما زال علماء الإسلام ومفسرو القرآن الكريم يأخذ بعضهم بظاهر الآيات والنصوص ، ويأخذ بعضهم بباطنها ويعول على السر والحكمة فيها ويقول : إن للقرآن — كما ورد — ظاهرا وباطنا : فالإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : إن المراد من الملامسة في قوله تعالى (أولامستم النساء) مس البشرية . وقال إمامنا أبو حنيفة — رحمه الله — إنها كناية عن غشيانهن . ومن أمثلة ظاهر اللفظ وباطنه قوله تعالى في الوصية بالوالدين (ولا تقل لهما أف) ظاهره النهي عن قول (أف) وليست (أف) — سوى مثال يشار به إلى باطن ، وهو

النهي عن كل إيذاء يقع من الولد في جانب والديه، ويمكن أن يعد من هذا القبيل آيتا (كالذى يتخبطه الشيطان من المس) (طلعا كأنه رؤوس الشياطين) فالعالم الحشوى يستنبط من الآيتين أن للشياطين رؤوسا منكورة بشعة، وأنهم يدخلون في أجسام المرضى فيتلونهم ويجعلونهم يضطربون ويلتبطون، أما العالم المتفقه في أسرار بلاغة القرآن فيحمل الآيتين المذكورتين ونظائرها على مجازاة الوحي الإلهي للعرب في مزاعمهم وأوهامهم كما جارا هم امرؤ القيس في قوله :

(أيقتلني والمشر في مضاجعي ومسونة زرق كانياب أغوال)
والمعروف من امرئ القيس أنه ما كان يعتقد بالغيلان ، وأن لها أنيابا كانياب الكلاب .

ومسائل الخلاف بين علمائنا وأئمتنا كثيرة لا تحصى، ومنها ما هو متعلق بالأصول والعقائد لسكنه والحمد لله اختلاف لا يخرج به المختلفون عن الملة ولا يعطلون أصلا من أصول الإسلام كما قلنا . والاختلاف على هذه الصورة نافع ومفيد في طمأنينة نفوس المؤمنين وراحة ضمائرهم ، ولا سيما وهم مختلفون في الأدوار والأطوار ، والعقول والأفكار ، ومن ثم قالوا . (اختلاف الأئمة رحمة) إذ يأخذ كل مؤمن من أقوالهم ما يرتاح إليه ضميره ويعتقده حقا .

فصل

وما ذكرناه من تأويل آيات النعيم الآخروى وجعله من قبيل التمثيل — لم يكن بدعا من أقوال العلماء ، ولا بالذى فاتهم البحث فيه . وهكذا شأنهم أيضا في الآيات المتعلقة بعالم الغيب كالميزان والصراط . فكان الكثيرون منهم يذهبون إلى أن معظم تلك الآيات من باب التمثيل والتقريب ، وليس المراد به ظاهره وحقيقته . وهناك آخرون ذهبوا إلى اعتقاد ظاهره وأن

هذا الظاهر ينطق بالحقيقة المجردة عن التمثيل والتقريب : فهما قولان يشبهان مذهبي السلف والخلف في الآيات المتشابهة بعضهم يؤمن بظاهرها وبعضهم يؤولها

وإذا كان لابد من الاستشهاد بقول إمام كبير على أن ملذات الآخرة مغايرة للملذات الدنيا بالسكنه ، ومشابهة لها بالاسم ، فهناك ما قاله الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه - المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى - بمناسبة قصور إفهام البشر عن الإحاطة بحقيقة معرفة ذات الله تعالى وصفاته ، وأن الحق في ذلك ما قاله الإمام الجنيد (لا يعرف الله إلا الله) - قال الغزالي ما نصه : (لا يعرف أحد حقيقة الموت والجنة والنار إلا بعد الموت ودخول الجنة والنار ، لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذة ، ولو فرضنا شخصا لم يدرك قط لذة ، لم يمكننا أصلا أن نفهم الجنة تفهما يرغب فيها ، وكذلك إذا أدرك شيئا من اللذات فغايتنا أن نفهم الجنة بأعظم ما ناله من تلك اللذات ، فإن كان في الجنة لذة مخالفة لهذه اللذات فلا سبيل إلى أصلا إلا بالتشبيه بهذه اللذات المخالفة لها ، كما ذكرناه في تشبيه لذة الوقاع بحلاوة السكر متى طالبنا الصغير ومن لا يشتهي النكاح أن نعرفه ذلك ، بل العبارة الصحيحة عن الجنة أنها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اهـ ومثل قول الغزالي ، قول منصور بن عمار السابق ، مذهب أبا العتاهية يقول في شعره (إن المليك - البيت - فشنع عليه قائلا : أتصور الحور على مثال امرأة آدمية ؟ فكان منصور يقول : إن الحور لسن على مثال الآدميات وإنما بشاركنهن بالاسم ولا مشابهة بين المسميات . وفي قول هذين الإمامين بلاغ ليس بعده إنكار ما قلنا مساغ .

فصل

وقد كان السلف الصالح في صدر الإسلام يتجادلون ويتناظرون في فهم النصوص الدليّة، وكلّ منهم يذهب إلى ما فهمه من دون أن يعيبه صاحبه به أو ينعيه عليه ، أو يحاول إرجاعه عنه . ومن أجل ما روى في هذه الباب أن عمار بن ياسر الصحابي الجليل - رضى الله عنه - قال قولاً في التيمم واستشهد عليه بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبله منه سيدنا عمر . ولم يتابعه عليه ، ولم يكلفه أن يرجع عنه . وإنما اكتفى بقوله له (نوليك ماتوليت) أى نسلم لك ما رضىته لنفسك واستخرت الله فيه ، ولا نتابعك عليه مادامنا غير مقتنعين بصحته . فخذ هذا الأدب الكريم من آداب الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا ريب أنه تعاليم إلهي فاض عليهم معينه من ينبوع الكمال الأعظم صلى الله عليه وسلم

وشكوت إلى السيد جمال الدين الأفغاني^(١) يوماً ما يقع من بعض العلماء المعاصرين من تكفير بعضهم بعضاً، وقلت له : لعل الذي جرأهم على هذا ما يرونه في كتب الكلام والخلاف ونشوء الفرق من مثل ذلك . فقال رحمه الله : إن علماءنا السابقين ما كانوا يفعلون ذلك، وإن ما يذهبون إليه أحيانا من الأقوال التي ظاهرها الكفر أو التكفير لا يقولونه ليكون عقيدة تقرر أو حقيقة تسطر ، وإنما القصد من ذكرها إظهار المقدرة في الجدل والحجاج وفنون المناظرة وهم كلهم ، رضى الله عنهم ، على عقيدة إسلامية صحيحة ناجون بها إن شاء الله . فسرني قوله جداً وازددت سروراً، فند سمعت

(١) وثقته لقاها في إياه في الاستانة سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م

مثل هذا القول من السيد محمد بن جعفر الكتاني الفاسي نزيل دمشق فقد سئل يوما عن قول منسوب للشيخ محي الدين بن عربي - رضى الله عنه - يخالف بظاهره لما تقرر في عقائد الإسلام فقال السيد الكتاني : إن للشيخ الأكبر في هذه المسألة قولاً هو نفس قول الجمهور لكن - رضى الله عنه - في قوله الآخر المنسوب إليه أراد إظهار المقدرة في المناظرة والجدل، وإيراد الحجج والبراهين على هذا القول كأنه يقول يمكن أن يقول الذاهبون إليه كذا، ويمكن أن يحتجوا له بمثل كذا أما هو (أى الشيخ الأكبر) فلا يعتقده ولا يحزم بصحته اهـ . وهذه هي الطريقة الحميدة التى بها يمكننا أن نحسن الظن بعلمائنا السالفين ونتحمل الشذوذ في القول أو الرأى أحياناً من علمائنا المعاصرين

فصل

ولم تخل ملة سماوية من هذا الاختلاف بين أبنائها في فهم نصوص دينها قديماً وحديثاً . وهناك شواهد ونموذجات كثيرة مما جرى بين علماء اليهود والنصارى، بشأن فهم النصوص الدينية أضربنا عنها خشية التطويل والخروج عن الصدد . ومن الغريب أن كثيراً من مسائل هذا الخلاف بينهم يشبه ما كان يقع بين أئمة الإسلام وفحول علمائه ، ولنضرب لذلك مثلاً (أوريجانوس) العالم المؤلف المسيحي الكبير ، رئيس مدرسة الإسكندرية وكانت وفاته في مدينة صور سنة (٢٥٥) للمسيح عليه السلام . وقد كان في أيامه لفلاسفة العرب في بتره (وادى موسى) وبصرى (حوران) آراء جمة في علوم ما وراء الطبيعة ، من ذلك أنهم كانوا ينكرون خلود النفس فذهب (أوريجانوس) إلى بلادهم ، وعقد مجمعا فيها وناظرهم وألزمهم القول

بخلود النفس ، لكنه هو إن أثبت خلود النفس ، فقد أنكر قيامة الأجساد وذهب فوق ذلك إلى أن العذاب الذي يتمتع على النفس الفاجرة موقت محدود المدة ليس خالدا ولا سرمديا . ومن ثم ضلله جمهور علماء النصرانية وعدوه مبتدعا . ^(١) ومن تأمل فيما نقلناه عن (أوريجانوس) عجب من مقدرة التاريخ على إعادة نفسه ومن كون طرائق الخلاف وتباين الآراء بين علماء الأديان السماوية متشابهة تمام التشابه .

وقد سمعت يوما فاضلين من أبناء إسرائيل يتناظران في (نشيد الانشاد) المنسوب إلى سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيه أوصاف شعرية صريحة اللهجة في محاسن فتاة محبوبة ، صورت فيها تلك المحاسن بأفصح تصوير وأبلغ تأثير : فقال أحد الفاضلين : إن المراد بهذا القول وصف محاسن الحكمة والفضيلة . فأجابه الآخر : كلا وإنما المراد به وصف محاسن المحظية الجميلة . وقال علماء أهل الكتاب في وصف صعوبة فهم أحوال عالم الغيب (إنه قد يكون في الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تعبر عنها . وإذا كنا نحن معشر البشر في دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال فكم بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزلى ووصف الأرواح المجردة عن المادة وذكر مختلف أطوارها) .

فصل

وحشر الأجساد أو قيامة الأجساد من جملة عقائد الديانة المسيحية التي

(١) أخبار أوريجانوس هذه لحصنها من ترجمة حياته في (تاريخ سوريا) للملاة المطران يوسف الدبس .

يضلل جاحدها في إنجيل يوحنا (فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته (أى صوت ابن الله وهو المسيح) فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة) راجع الإصحاح الخامس وفي سفر أيوب (١٩ : ٢٥ - ٢٧) مانصه : (إني لعالم أن قادى حى ، وسيقوم آخرى على التراب . وبعد ذلك تلبس هذه الأعضاء بجلدى ، ومن جسدى أعين الله الذى أنا أعينيه بنفسى ، وعينى تريانه لاغيرى اه)

وفي العقيدة التى قررناها أول مجمع مسكونى تحت رئاسة اسكندروس بطريك الإسكندرية النص على حشر الأجساد ، إذ قيل فيه : (وصعد المسيح إلى السماء وجلس على يمين أبيه وهو مستعد للبعث تارة أخرى للقاء بين الأحياء والأموات) وقيل فى آخرها : نؤمن بكذا وكذا وبقيام أبداننا بالحياة الدائمة أبد الأبد .

و ما فى مجلة (المسرة) الكاثوليكية جزء (٤) سنة (٨) الصادر سنة (١٩٢٢) م جوابا على سؤال بشأن حشر الأجساد ^(١) مانصه : (إن قيامة الأجساد عقيدة من عتائد الإيمان ، وعلى كل مسيحى أن يؤمن بها وقد حددها المجمع اللاترانى الرابع سنة (١٢١٥) م وعليه فإن أجساد الأبرار تأخذ نصيبها من نعيم السماء ، كما تأخذ أجساد الأشرار نصيبها من عذابات جهنم . هذا هو التعليم الصحيح المبني على أنوار النقل والعقل معاً اه)

• وفى إنجيل لوقا (٢٢ : ٢٩) إن المسيح قال لتلاميذه فى العشاء السرى (أنا أعدكم لكم الملكوت كما أعدته لى أبى لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى

(١) راجع مقالا عن قيامة الأجساد فى مجلة المشرق جزء (٩) سنة (١٩٠٦) م : ٣٤٦ و ٣٣٧

ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر (٥)
وكتب (المطران^(١) جرامانوس فرحات) فى معجمه اللغوى (أحكام
باب الإعراب — عن لغة الأعراب) (ص ٤٩٧) حيث ورد فى حق جهنم
ما نصه (جهنم مغارة مظلمة فى قلب الأرض مملوءة نارا وكبريتا تسكنها
الشياطين والكفار والخطاة . طولها مئتا ميل وكذلك عرضها وعلوها
بينها وبين وجه الأرض ثلاثة آلاف ميل والداخل إليها لا يخرج منها إلى
الأبد وخلاف ذلك بدعة اه)

وقال المسيح لتلاميذه حين شرب معهم : إني لست شاربا من ابنة هذه
السكرمة حتى أشربها معكم نارة أخرى فى ملكوت السماوات . وقال يوحنا
عن المسيح : ما أكثر الغرف والمساكن عند أبى .

واطلعت أخيراً على رسالة فى (علم النفس الإنسانية) طبعت حديثاً
فى مطبعة السريان بالقدس، وهى من تصنيف العلامة أبى الفرج بن العبرى
وحجة علماء الشرق المسيحى بلا منازع، وقد قال فيها (ص ٦٦ — ٦٧)
ما نصه (إن جميع علماء البيعة اتفقوا على أن النفس متى حصل لها الانتقال
عن البدن تقصدها الملائكة والأبالسة ولأى جهة استحققت رفعوها إليها
إلى حين القيامة الكلية تعود إلى البدن الذى انفصلت عنه، إما للنعيم
المقيم أو للعذاب الدائم اه) أقول والبدن الذى تعود إليه النفس الإنسانية
يوم القيامة يبعد أن يكون مفلوجاً فاقداً الحواس التى هى أداة الشعور باللذة
والألم ولو كان فاقداً الحواس، لما كان بدننا بل لما كانت نعمة حاجة لأن يخلق
ثانية فتكون النتيجة أن نعيم الجنة روحانى، وللجسد المادى نصيب منه، وقد
استعار الوحي الإلهى للنعيم المادى الأخرى أسماء النعيم المادى الدنيوى
لأجل أن تتصوره عقول البشر فى الجملة

خاتمة

ثم أن ما قلناه في (ملذات الجنة) وما جاء بشأنها من الآيات في القرآن هل هو حقيقة أو تمثيل، يقال في (عذاب جهنم) وأسباب الشقاء فيها، وهل المراد بها حقيقة كما يستفاد من ظاهرها، أو هو تمثيل لآلام جسمية نفسية شديدة مختلفة في أحوالها وأطوارها، صورها لنا الوحي في صورة ما ألفناه واعتدناه في دنيانا هذه من وسائل العذاب وأسباب الشعور به، وأن النار والبطون في آية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا) هما كالنار والبطون في آية (قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يصهر به ما في بطونهم والجلود) هما في الآيتين مضروبان على غرار واحد من حيث التجوز والتصوير والتمثيل. ويحسن أن يقدم ويؤخر في إيراد الآيتين فيقال: إن النار والبطون في آية قطعت لهم ثياب الخ هما في التجوز والتمثيل كالنار في البطون في آية (إن الذين يأكلون الخ. وقد اطلع بعض الفضلاء على رسالتنا هذه بعد الفراغ منها فراقه البحث فيها، غير أنه تمني لو تجعل أقوال الفرق الثلاث قولين ذهاباً منه إلى أن قول الفريق الثاني، وهم السادة الصوفية لا يخرج في حقيقته عن قول الفريق الثالث فهو أو قريب منه.

فقلت له: يفهم من بعض عبارات السادة الصوفية، أن الجسمية في النشأة الثانية تفنى في الروحانية فيكون الظهور للروح دون الجسد، وبذلك يصبح نعم الجنة كأنه روحاني محض. أما الفريق الثالث فيقولون بأن الروحانية مهما اشتدت في الدار الآخرة فإن الجسمية لا تفنى فيها ويبقى الجسد متعتمداً

بكل وظائفه ومشاعره المعهودة في دار الدنيا ، لسكن على نمط يلائم أحوال
الإنشاة الثانية كما فصلنا على أن هناك فرقا آخر بين القولين : وذلك أن
السادة الصوفية يعولون فيما ذهبوا إليه من أمر ملذات الآخرة على المذاويق
والمواجيد وضروب المكاشفات . أما الفريق الثالث فلا يُعولون فيما
ذهبوا إليه على هذا المعنى ، وإنما كل اعتمادهم على اللغة العربية وأساليب بلاغاتها
وما يتنافس به فصحاء ، العرب من بديع استعاراتها وكنائياتها .

ومهما اختلفت عباراتنا - معشر المسلمين - في حقيقة أمر العذاب والنعيم
الآخرويين ، فإن تختلف والحمد لله عقيدتنا فيهما ، وفي صدق الوعد الإلهي
بهما وبوقوعهما بعد الموت .

هذا ونسأل الله أن يرحم ضعفنا ، ويعفو عن سيئاتنا ، ويختم بالصالحات
أعمالنا ، ويحشرنا مع زمرة أوليائه المقربين ، ويقبل فينا شفاعته سيد
المرسلين عليه من الله الصلاة والتسليم .

يقول مؤلف هذه الرسالة فرغت من تأليفها يوم الجمعة الواقع في ١٦
محرم سنة ١٣٣٨ الموافق (١٩٢٠) م في دمشق الشام وأنا بها نزيل .

القرآن في مصر

بقدر ما يعجب المرء من كثرة حفظنة القرآن في المسلمين ، وإجادة الكثيرين منهم في حسن الأداء والصوت — يعجب من عدم احترامهم للقرآن الاحترام اللائق به . نعم لا ينكرون ولوع المسلمين بسماع تلاوة القرآن وإعجابهم بمن يجيد تلاوته ويحسن تلحينه ، لكن احترام القرآن شيء والطرب لحسن تلاوته شيء آخر ، بل لو قال قائل : إن اقتصار المسلمين على جعل القرآن وتلاوته وسيلة لطربهم وتلذذهم وعدم الانتفاع منه بسوى ذلك ، وسوى تعيـش كثير من قرائه به في المآتم والقرافات والشوارع — هو إثم وإضاعة — لما كان ذلك القائل في ظني مخطئاً ولا أراه مقصراً في نصحه لإخوانه المسلمين .

كتاب إلهي أرسلته إلينا العناية الأزلية ، لكي نهتدى بهديه وننتفع بما تضمنه من قواعد الاجتماع وأصول العمران ، ونتخذة نوراً نمشي على أثره في ظلمات هذه الحياة إلى نيل السعادتین الدنيوية والأخروية ، أيصح منا أن نعرض عن العمل بمضمونه ، ونهمل الاستفادة من أصوله وقواعده ، ونكتفي عن كل ذلك باتخاذ ذريعة للطرب والكسب ؟

كيف يكون حنق الأب الحريص على تربية ابنه ، إذا لقنه كلمات من الأدب والحكمة كقولہ أطع أباك وأكرم أمك ، كي يأخذ نفسه بها ويتدرب على مزاراتها ، فرفع الولد عقيرته ، وجعل يتغنى بها ويمطط كلماتها ، ويتعمر في

اللوم والإنكار، بل التفسير والإكفار . على أن الأمة الآن في حيرة من تلافى كثير من جزئيات الأمور ، فكيف يكون حالها لو تصدت لبتّ الرأي في مسألة يصح أن تسمى مسألة الدين والسياسة معاً ؟ فلنسرع إذن بالعود إلى ما كنا بصددده من بيان أن القرآن الكريم في مصر، لم ينل المنزلة اللائقة به من حيث أنه كتاب مقدس، وإن نالها من حيث أنه وسيلة للطرب والسرور، اعتاد الوجهاء في مصر - ونعمت العادة هي - أن يعيّنوا قارئاً يتلو القرآن في منازلهم زُلفاً من الليل، فيجهر بالقرآن ويتوخى الإجادة في التلحين ماشاء وشاءت مهارته، وقد تصل إلى أسماع السَّمَر من تلك الآيات آية حكمة أو موعظة، أو مافيه إرشاد إلى شأن عام يتعلق بمصلحتهم واجتماعهم، فيتدبرون معنى هذه الآية، ويبدى كل منهم رأيه في ما يفهمه منها، ويحسبه مفيداً في إصلاح المسلمين وخيرهم ، كذا نحن نقول في فائدة هذه العادة عادة تلاوة القرآن في منازل الأعيان في شهر رمضان، كما أن لنا واغيرنا أن يقول: إن في تلاوته من البركة والخير لأهل المنزل وما كنيه ما يعيهم في هذا الشهر والسنة كلها .

حقاً أن من يمشى في حارات القاهرة ليلاً ، حيث منازل الوجهاء والأعيان، تهتز نفسه وتنتعش حواسه عند ما يسمع أصوات القراء تتجاوب في الفضاء هنا وهناك ، فتلقى هذه الحالة على أحياء المدينة في هذا الشهر المبارك مسحة ديلية، وتُعطي سكانها نشأة روحية، تحسدهم عليها سائر البلاد الإسلامية . غير أننا نود لذلك الذي يقرأ القرآن مكاناً أشرف من المكان الذي تُخصص له عادة، بحيث يكون بعيداً عن جلبة الخدم وضوضائهم ، بعيداً عن موضع إعداد التبغ والقهوة وعن قذارة أدواتهما وانبعاث روائحهما ومهما يكن فإن الخطب في هذا سهل بالأسبة لقراء المآتم، الذين يحشرون هم

اللوم والإنكار، بل التفسير والإكفار . على أن الأمة الآن في حيرة من تلافى كثير من جزئيات الأمور ، فكيف يكون حالها لو تصدت لبت الرأي في مسألة يصح أن تسمى مسألة الدين والسياسة معاً ؟ فلمسرع إذن بالعود إلى ما كنا بصده من بيان أن القرآن الكريم في مصر، لم ينل المنزلة اللائقة به من حيث أنه كتاب مقدس، وإن نالها من حيث أنه وسيلة للطرب والسرور . اعتاد الوجهاء في مصر - ونعمت العادة هي - أن يعيّنوا قارئاً يتلو القرآن في منازلهم زلفاً من الليل، فيجهر بالقرآن ويتوخى الإجادة في التلحين ماشاء وشاءت مهارته، وقد تصل إلى أسمع السّمَم من تلك الآيات آية حكمة أو موعظة، أو مافيه إرشاد إلى شأن عام يتعلق بمصالحهم واجتماعهم، فيندبرون معنى هذه الآية، ويبدى كل منهم رأيه في ما يفهمه منها، وبحسبه مفيداً في إصلاح المسلمين وخيرهم ، كذا نحن نقول في فائدة هذه العادة عادة تلاوة القرآن في منازل الأعيان في شهر رمضان، كما أن لنا ولغيرنا أن يقول: إن في تلاوته من البركة والخير لأهل المنزل وما كفيه ما يعيّنهم في هذا الشهر والسنة كلها .

حقاً أن من يمشى في حارات القاهرة ليلاً ، حيث منازل الوجهاء والأعيان، تهتز نفسه وتنتعش حواسه عند ما يسمع أصوات القراء تتجاوب في الفضاء هنا وهناك ، فتلقى هذه الحالة على أحياء المدينة في هذا الشهر المبارك مسحة ديفية، وتعطى سكانها نشأة روحية، تحسدهم عليها سائر البلاد الإسلامية . غير أنا نود لذلك الذي يقرأ القرآن مكاناً أشرف من المكان الذي نُحَصَّص له عادة، بحيث يكون بعيداً عن جلبة الخدم وضوضائهم ، بعيداً عن موضع إعداد التبغ والقهوة وعن قذارة أدواتهما وانبعاث روائحهما ومهما يكن فإن الخطب في هذا سهل بالنسبة لقراء المآتم، الذين يحشرونهم

والمعزّون إلى أزقة قذرة ومازق عفنة ، تعترض سير المارين إلى بيوتهم ومحالّ أشغالهم ولا يمرّ أحد - من أيّ طائفة كانت - من دون أن يقف ويتأمل في هذا المآثم والمجتمعين فيه، ويفكرّ فيما يريدون من هذا الاجتماع .

وقد رأيت مرةً رومياً أو طليانياً يدخن ويداه في جيبيه ، وهو يقلب نظره في أولئك المعزّين الذين حشروا إلى زقاق بالقرب من حانوته أو حانته، والقارىء يتلو عليهم وهم يحركون رؤوسهم، وأيديهم ويميل بعضهم على بعض - فكانت أمارات العجب والحيرة بادية على وجه الرومى : يريد أن يحكم بأن القوم في مآثم فيرى الحاضرين طربين صارخين، كأنهم في عرس، ولا يمكنه أن يحكم بأنهم في عرس ، لأن الفقهاء يقرءون كتبهم المقدّس عن روح الميت الذى رأى جنازته بالأمس مرت أمام حانوته . كان الرومى يفكر فيهم وكنتُ أنا أفكر فيه . وكان بجانبى آخر وطنى حسن الإشارة يفكر فى فالتفتُ إليه وماشيته، وجعلت أشرح له ألى وأسى، بما كنت أرى في المآثم وفي الرومى . فقال لى بعد إصغاءٍ طويل : إن من العبث إصلاح أحوال العامة وتغيير عاداتهم القبيحة، إذ ليس الأمر فى ذلك منوطاً بشئ . وإنما هو من وظائف (قطب البلد) فقلت : نعم الرأى رأيك ، ثم أفلت من بين يديه سليماً معافى والحمد لله .

فقراءة القرآن فى المآثم فى أزقة كهذه ، لا أراها تنطبق على أدب الدين وليست من احترام القرآن الكريم فى شئ والآنكى من هذا ، بل من أعجب ما يلفت نظر الغريب فى مصر ، أولئك العامة الذين يستأجرون القُراء للتلاوة فى حوانيتهم ، وإلى الآن لم أفهم الغرض الصحيح من ذلك سوى ما فهمته بالقرينة من أنهم يتبرّكون بالتلاوة فتغزر أربابهم أو يهدونها

إلى أمواتهم فتتغم أرواحهم . كيف لا تنفعل النفس ، وتتقطع أسفاً عندما يرى المسلم القارئ أو القارئة الحسنة الصوت ، تتلو كلام الله وسُورَ الوحي في دكان قذرة خبيثة الرائحة ، حيث تُقلى الطعمية وتحضّر موادها المتنوعة ؟ وربما كان ذلك الطعام هو المراد بقوله تعالى : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ، ذلك أن الإسرائيليين تمنوا البقل والقشّاء والفوم والعدس والبصل ، ويبعد أن تسكون كل مادة من هذه المواد بما يأكلونه على حدته فهى إذن مواد يؤلف منها طعام واحد . ولا جرم أن يكون ذلك الطعام هو الطعمية ، فالطعمية إذن طعام قديم معروف عند قدماء المصريين ، ولكنه مع هذا من أدنى الأطعمة وأخبثها فيحسن بنا إذن أن نزه كلام الله عن تلاوته بجانبها .

دع هذا واسمع منى ما هو أعجب ، مما أذكره لك مجرّداً عن كلمات العَجَب والاسف فأدعك تسبّح حل وتحوّل ، إن كنت ممن يعقل : ترى القارئ في القهاوى يتلو الكلام السماوى ، وحوله المدخنون واللاعبون بالملاهى ، من مثل : النرد والطاولة وورق اللعب ، وكثيراً ما يكون مقعده خلف ظهورهم وليس بينهم من يقبل عليه ، أو يصغى إليه .

لوعرفها لعرف^(١)

ضروب الكسب وأنواع المتاجر كثيرة ، ومن أفضلها بيع الكتب وطبعها ، فإن هذا الضرب من الكسب لا يعطى صاحبه إذا وُفِّقَ فيه ثروة ومالا فقط - بل يذخر له إذا حسنت نيته مثوبةً وأجرًا أيضا . وفي القاهرة اليوم نفر من هؤلاء الذين يسعون وراء البحث عن الكتب القديمة ، والأسفار النفيسة ، فيصطحونها ويطبعونها ويبتغون الربح من ورائها .

ومنذ أيام زارني واحد من هؤلاء ، وكلفني أن أذهب معه إلى بعض (الكتبيات) القديمة : فقد بلغه أن فيها كتابا قديما مخطوطا لم يطبع بعد ، وقد أكد له الخبIRON أن في طبعه رواجا وفائدة له وللناس : من حيث إن موضوعه ديني أدبي عمرائ اجتماعي ، وما أحوج أمتنا إلى كتاب من مثل هذا الموضوع . ذهبنا إلى حيث كان الكتاب وطلبناه من القيم على (الكتبية) فإذا هو مجلد معتدل الحجم حسن الخط ، دفناه من خشب أمسكتا بقيدة من جلد أبلتها اللياالي والأيام ، وورقه متين مصقول ، غير أنه متأكل من كثرة ماعاث فيه العث ، وأفسدت حشرات الأرض

ولم يمكننا أن نعرف اسم المؤلف ، ولـكن في أى عصر كان لـكن غلب على ظننا أنه يرتقى إلى القرن الخامس من الهجرة أو أبعد من ذلك . ثم كلفني صديقي أن أقرأ له فصلا من ذلك الكتاب ، ليتبين منزلته ويتحقق فائدته

(١) كتبت سنة ١٩٠٧ م

فلم أتردد في اختيار الفصل وانتقاء البحث ، لئلا يطول التردد . ويكثر التقلب والتصفح ، بل قرأت للفصل الذي وقعت عليه العين لأول الأمر

هذا الفصل يبلغ زهاء ثمانى صفحات وقد افتحه صاحبه بتنبيه القارىء إلى ما تضمنه ذلك الفصل من الآداب والتعاليم المهدبة لنفسه والمرقية لروحه : من ذلك التشديد بالعقاب ، وضرورة إقامة الحد على الذين يلمتسون الحرمات ، ويتعدون حدود الفضيلة : فإن البلد إذ خلا من وازع — يهدد المستهترين والفساق ، ويكبح من جماح نفوسهم — توغلوا في الإثم ، وتمادوا في ارتكاب الفجور . وفي هذا من انتشار الأمراض وتراخي عرى العائلات ما لا يخفى على الفطن اللبيب .

وبعد ذلك أفاض الكتاب في حرمة لمز الأعراض ، والتعرض للمحصنات . وأن في عقاب هؤلاء ما يردع أمثالهم ، ويثاقى الطمانينة في نفوس الأزواج ، والسكينة بين العائلات . ثم وَّجَّح الذين يستسهلون هذا الأمر . وعلمهم الأدب في مثل هذه المواطن

وحذرهم من الشيطان واتباعه ، فإنهم إذا اتبعوه وتلمسوا ما يزينه لهم ، لا يجدون سوى الفواحش ، ولا يقعون إلا على القبائح والآثام

وإن العاقل من شغله عمل الخير وصنع المبرات ، عن التعرض لمالا يعنيه أو يضره من هذه الخزيات . ثم علمنا الكتاب من آداب المعاشرة : أن لا تدخل منزلا لأحد من دون أن تستأذنه . وإذا لم يأذن ما كان لنا أن نمتعض أو نجد في نفوسنا غضاظة . فإنه لا غضاظة في حسن الأدب

ولا خسار . ثم أمر النساء والرجال بغضّ البصر وترك النظرات الخائنة . وأن يدعوا كل مافيه تذرّع إلى فاحشة أو منكراً ، فلا تتبرج النساء ولا يبدن من أجسامهن ومعارينهن ما يحمل الرجال على التطلع إليهن ، والاشتغال بهن . وأن على مجموع الأمة أن ييسروا أمر الزواج ويمهدوا سبله أمام أهل العزوبة الفقراء : فإن هذا مما يبعث على العفة والصيانة وكثرة النسل وتقليل الفجور والعهر والأمراض الناشئة عنها . ثم ذكر شيئاً من جلال الله وعظمته ، وأن على المرء أن لا تشغله دنياه عن مراقبة ذلك الجلال والخشوع لتلك العظمة : فإن هذه المراقبة تزيد تمسكاً بالفضائل ، وتحجز بينه وبين الرذائل وإتيان الموبقات . أما الغافل اللاهي القلب عن مراقبة خالقه ، فلا تسلك عن تورطه في المنكرات ، وسبجه من غوايته في غمرات

ثم عَجِبَ لأولئك المستهترين الغافلين : كيف لا يلفتهم صنع الأكوام . وبديع شئونها إلى بارئها وموجدها :

الطير يحمله الهواء ، وفي الهواء نفسه تتكون السحب فينهمر منها المطر ، ويتساقط البرد ، وتهاوى سيوف البروق . وهذان الليل والنهار اللذان يتعتمان عليك !!! وما هذه الحيوانات المختلفة الأشكال المتعددة الأنواع ؟ أفبعد كل هذا جحود وإنكار ؟ ثم قرّر أن الأمة في مجموعها لا تنهض من كبوتها ، ما لم تعمل بأصول دينها بما فيه صلاحها وسعادتها ، وأن بقاءها في الأرض متوقف على قدر عنايتها بأمر تلك الأصول الدينية ، ومراعاتها لها في شؤونها الدنيوية فإذا قصّرت في مراعاة تلك الأصول لا تلومن إلا نفسها . ومن تلك الأصول الزكاة التي تحفظ الموازنة بين آحاد الأمة فلا يضطربون ، ولا يحقد بعضهم على بعض ، ولا يستأثر أفراد منهم بخيرات الأرض مع أنها أهم جميعاً . وأن

أولئك الذين يهملون العمل بأصول الدين ، ويخرقون نظام الاجتماع ، لا بد أن تصيبهم داهية تدمرهم ، أو تؤدي إلى أن يتسلط عليهم غيرهم .

ثم أتى المؤلف على ذكر شيء من آداب الأطفال قبل البلوغ وبعده مما فيه تحديد لأعمالهم وبيان لواجباتهم . ومثل ذلك النساء والعميان والعرجان والمرضى ، فإن لكل هؤلاء آداباً خاصة يلزمهم مراعاتها في بيوتهم ، ومع ذويهم .

ثم تأتي بعد ذلك عظة للمسلمين عامة : موضوعها التزام أمر الشارع . وعدم مخالفته في شيء . وأن في ذلك الخير والسعادة .

ليس هذا كل الفصل الذي تلوه في ذلك الكتاب . وإنما هي نماذج من إشارات إلى موضوعاته وأبحاثه .

وقد تهمل وجه تاجر الكتب فرحاً وسروراً ، وقال : هذه هي الضالّة التي نشتدّها نحن معشر باعة الكتب . على أن الفضلاء والمتأدبين ليسوا بأقل تشوقاً إلى مثل ذلك الكتاب : فإن هذا الفصل وحده الذي قرأته لي منه لم يدع أصلاً نافعاً ولا حاجتاً من حاجات الأمة في مجموعها وأفرادها إلا أتى عليه تصريحاً أو تلويحاً . ولا أرى إحياء الغزالي ولا مقدمة ابن خلدون ، بأنفع من هذا الكتاب ، ولا بأروج منه إذا نشر بين المسلمين والمشتريين ، فهو في الفصل الواحد لا يلتزم موضوعاً خاصاً ، أو بحثاً فذاً ، بل ينتقل من واحد إلى آخر . فلا يجد المطالع فيه سأمه ولا ضجراً .

ثم قال الناجر : وكيف رأيك في الإعلان عن هذا الكتاب في الجرائد؟

وبماذا نسمي موضوعه ؟ هل هو الدين ؟ أو الأخلاق ؟ أو نظام الاجتماع ؟
أو الآداب الشخصية ؟ أو آداب المعاشرة العامة ؟ ثم أخذ الكتاب وجعل
يتصفح ويقلب أوراقه ، وكان لا يعرف القراءة و لو عرفها لعرف ، أن
الكتاب القرآن ، والفصل سورة النور ^(١)

(١) روى يعقوب بن سفيان في تاريخه باسناد صحيح عن أبي وائل قال : قرأ
ابن عباس - رضى الله عنه - سورة النور ثم جعل يفسرها فقال بعض السامعين : لو سمعت هذا
الديلم لأسلمت .

درس من القرآن

قد يسمع الكاتب كلمة من جليسه ، فيتخذها موضوعاً يبنى عليه مقالة مسهبة ، أو يقرأ خبراً في جريدة ، أو تبلغه واقعة جرت لبعض الناس ، أو يقع تحت نظره وهو يطالع في كتاب حكمة رائعة ، أو عظة بالغة ، فيجد من كل ذلك موضوعاً يفيد القراء إذا اطلعوا عليه ، أو أميات نفوسهم إليه . وما للكاتب يستمد مواضيعه من تلك المصادر وينتظرها من يوم إلى آخر ، ولا يرجع في ذلك إلى كتاب فيه من كل شيء ، وقوائمه 'حكم' ، والعمل به غنم ؟

أصبح ما يقال من أن القرآن أنزل في زمن خاص ، لكي يمارسه أقوام عاشوا في ذلك الزمن ثم انقضى حكمه لانقضاء زمانهم ؟ أصبح أن القرآن ما عاد يصلح إلا لما اصطالح عليه المؤمنون به : من جعله وسيلة للاستجداء ، أو الاستشفاء ، أو إطراب النفوس ، وإهداء الثواب إلى سكان المقابر والرموس ؟

أياق أن يصبح القرآن الكريم مهجوراً بين المسلمين إلى هذا الحد ؟ خذ القرآن الكريم واقراً فيه بتدبر آية سورة أو آية منه ، تجد في نفسك من الشعور والتأثر الخفي ، ما لا تجده في مقروء سواه .

تقرأ سورة منه فتجدها مفتوحة بالثناء على الله الذي من على الخلق بهدايته . فإز أفراداً منهم بمواهب ليست في سواهم ، وأعداء نفوس أولئك

الأفراد لتلقى الوحي ، فيستصلحون به فساد البشر ويطهرون نفوسهم من أدران الرذائل . لو لم يكن هناك أنبياء ممتازون بمواهبهم واستعدادهم لقبول الوحي ، فماذا تكون حالة البشر الذين لا يجدون هاديا يهديهم ولا مرشدا يدهم على سبيل الخير والفضائل ؟

لولا الرسل الكرام لما اتجهت نفوس الخلق إلى توحيد الله ، وتنزيهه عن أن يكون له شريك يساعده ، أو ندّ يماثله .

أفلا يكون من العجيب بعد هذا أن يكذب المكذبون أولئك الرسل ؟ وأن يقولوا أن ما أتوا به من الهداية إفك أو من خرافات الأقدمين ، يوهون بها على السذج والمغفلين ؟

ومبلغ حجة المكذبين أن من تصدى لإرشادهم وهدايتهم ، من الرسل ليسوا سوى بشر مثلهم ، ويباشرون من الأعمال ما يبشرونه هم ، فكيف مع هذا يضعون أنفسهم موضع الإرشاد والهداية ؟ وهذا جهل كبير من أولئك المكذبين ، سوف يذوقون وبال أمره ، ويحزنون المر من ثمره .

لو تدبروا العواقب واعتبروا بالمشكلات التي حاقت بالجاهلين المكذبين من قبلهم ، لما تمادوا في غيهم وتكذيبهم كيف كبر عليهم أن يتلقوا الهداية من مثلهم ؟ ولو أرسل الله إليهم رسلا أو خلقنا آخر ، اصعب عليهم تآخي الهداية عنه ، وإذ ذاك يكفرون ثم يعتذرون عن كفرهم بأن المرسل إليهم من غير بني جلدتهم ، ولا تلائم طبيعته طبيعتهم .

وكيف يحجد المرء أو يمارى في وجود الخالق ، وهو إذا نظر إلى الشمس

وما يدور حولها من الأجرام الهائلة، وكيف يتولد الليل والنهار من دوران الأرض، فيكون للبشر نصيب من الراحة والسكون في ليالهم، ثم يهبطون إلى الكسب والسعي في نهارهم، وهبوب الرياح وتكون السحب وهطل الأمطار، وكيف تستمد ماءها من البحار المازجة على وجه الأرض مع أن منها الملح، كما أن منها العذب، ومن الماء ذرأ الله البشر، ومد يدهم شوابك النسب والقرابة. أليس في كل هذا ما يدل على وجوده تعالى وإيجاده لهذا العالم؟ وإلا فكيف حدثت كل هذه الشئونات، وتكونت تلك المخلوقات البديعة الصنع؟ وهل يصح بعد هذا أن يعبد البشر من يُحيل العقل أن يكون له يد أو دخل في وجود هذه الكائنات، ونشوء هذه المبروات؟ إذا صبح إيمان المرء بالله تعالى وخالطت بشاشته قلبه، ظهر أثر ذلك الإيمان على جوارحه، واتبع طريق الرشاد في أقواله وأعماله:

من آثار الإيمان الرفق والصبر والإعراض عن اللغو والهجر، وليس منها الطيش والمراء، والخوض فيما لا يعنيه من شؤون الناس. ومن آثاره مراقبة الله بحيث تمنعه هذه المراقبة عن إتيان منكر، أو ارتكاب قبيح. ومن آثاره الاقتصاد في الإنفاق فلا يبذر المؤمن أمواله فيما لا يرجع عليه أو على غيره بفائدة، كما أنه لا يحبسها دون مصارفه المعقولة وأن يتناول به كل ما أمر به الشرع، واستحسنه العُرف.

وليس من الإيمان العدوان على الناس فيؤذيهم، أو يبطش بهم ويغتالهم. ومن هذا القبيل الزنا، فقد جعله الشرع بمثابة القتل لأن اللقيط يضيع ويموت في الناس، وإن كان يأكل ويشرب بينهم.

ومن منافيات الإيمان شهادة الزور، والتوصل بذلك إلى أكل مال الناس بالباطل أو إضاعة حقوقهم.

ومن أكبر علامات الإيمان الانصباع إلى الحق ، وتجنب المكابرة .
فالمؤمن الكامل هو الذى يفتح عينيه وأذنيه لتلقى الحكمة والتقاط الحقيقة
من معادنها ، ولا يكون من شأنه معها أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه عنها .
هذه أمثلة من آثار الإيمان وفضائله التى يأمر بها القرآن ، وهذا هو
المؤمن الذى يستحق أن يكون قدوة للناس يتأسسون به ، يأخذون أخذه .
ويكون جديراً بما وعد الله المؤمنين من الثواب ، كما يكون ذيرهم أملاً
لحلّول العقاب .

مثل هذا يا سليم^(١)

أعجب القراء بما كتبه د سليم ،^(٢) في عدد أمس (من المؤيد) عن شرب الدخان في مجلس القرآن وحقهم أن يعجبوا .
أعجبوا بأدب د العقاد ،^(٣) ولم يبخسوا د سليماً ، حقه من الإعجاب والثناء أيضاً .

د العقاد ، كان في صناعته أدبياً فقط ، أما د سليم ، فقد كان أدبياً وواعظاً في آن واحد .

عظة د سليم ، ينبغي أن تكون غاية في تنبيهها لنا ، وتأثيرها في نفوسنا .
د سليم ، نفسه عقد النية على أن يتأدب في مجلس القرآن منذ الآن ، كما كان يتأدب في مجلس الإنجيل .

عظة د سليم ، بعزمه على أن لا يعود إلى شرب الدخان ، هي - ولا ريب - أفصح وأصرح من عظته لنا بقوله ، وتلسيق جملة .

هذا هو مبلغ تأدب د سليم ، مع د القرآن ، وهو لا يعتقد فيه ما نعتقده نحن . فكيف ينبغي أن يكون تأدبنا ، ومبلغ احترامنا ؟

كان الرجل من سلفنا الصالح إذا سمع القرآن يُتلى ، صَعِقَ ووقع من شياً عليه .

(١) كتبت سنة ١٩٠٨ م

(٢) هو المرحوم سليم سركتيس الكاتب المسيحي المشهور والمحرر في (المؤيد) يومئذ

(٣) هو الوجيه المصري الكبير السيد حسن موسى العقاد

القرآن كلام الله . ومن أصغى إلى القرآن، فكأنما هو يضحى إلى الخطاب الإلهى يعظه ويرشده .

هذا هو اعتقاد المسلم في القرآن، فهل يُتَظَر منه أن لا يكون أدبياً في مجلسه ؟

بل لا يحق لنا أن نعجب ممن يتأدب في ذلك المجلس الكريم ، وإنما يحق لنا أن نعجب ممن لا يتأدب .

يحق لنا أن نعجب منذ نرى القرآن يُقرأ في محال الخدمة ، حيث تجهز القهوة وأدوات الدخان .

يحق لنا أن نعجب أو نحزن حينما نرى القُرَّاء يقرءونه في الحوانيت الخميرة حيث تجهز الأطعمة النافهة ، والمصنوعات الممتهنة . وفي القهـاوى حيث تُتَعاطى المحرمات ، ويُقتل الوقت في اللعب والملاهى .

يحق لنا أن نأسف منذ نسمع الفونوغراف يُلقى علينا آيات القرآن في الشوارع والحوانيت في جملة ما يلقى من المضحكات والمخزيات .

يحق لنا أن نأسف أو نحزن منذ نهجر القرآن، فلا نعمل بمواعظه وآدابه، ونَصِلُ^(١) القرآن فننتخذه وسيلة للطرب والشحاذة والاستشفاء : وهى أمور لم ينزل القرآن من أجلها ، وإنما أنزل ليسكون شفاءً لنا من داء الجهل، ومرشداً للسعادتين الدنيوية والأخروية .

وإذا أسف القرآن أو حزن لأناس لا يعملون به ، ولا يتأدبون في مجلسه . فإن هناك أخاً له قد يكون أسفه أشد ، وحنقه أكثر .

(١) أى نواصل القرآن ولا نهجره لكه وصل غيره أرضى الله .

القرآن أنزل في رمضان . ورمضان موسم الاستكثار من تلاوة القرآن ،
فهما أخوان توأمان

شربُ الدخان في مجلس القرآن تركٌ للأدب ، أما شربه في شهر رمضان
فهو تركٌ للفرض .

إذا كان الدخان حلالَ الشرب - كما هو الواقع - فقد يقول القائل : إن
استعماله في مجلس القرآن يكون كاستعمال سائر المحللات : من أكل فأكهة
مثلاً ، أو شرب شاي ، أو قهوة . وكأن يتكلم المرء مع من بجانبه بشرط أن
لا يكون في ذلك تشويش على القارئ والمستمعين الآخرين : أما شرب
الدخان في شهر رمضان (على وزن عُنُقُ جمع نهار) فهو مُفطر كالأكل فيه
والأكل فيه هتكٌ لحرمة واستهانة بقومية المسلمين

وإذا جاهر المسلم بشرب الدخان في أيام رمضان ، كان الهتك أشنع ،
والحرمة أغلظ

كيف يليق بالمسلم المتأدب والعاقل الأريب ، أن يهتك حرمة شهره على
هذه الصورة ، ثم يزعم أنه مسلم أو يحسب إخوانه المسلمين يزعمون فيه ذلك ؟
كيف يطيب ذلك لك أيها المسلم الغيور ، الوطنى الذى يسعى في إنهاض
الوطن بلسانه وقلبه - وهؤلاء - بنى وطنك - يعتقدون فيك اعتقاداً لا يتيسر
معه إنهاض وطن ، ولا إصغاء إلى قول

إذا بُليت فاستتر ، وإذا لم تعتقد أن صوم رمضان والعباد بالله فرضاً
ديلياً ، فلتعتنقه على الأقل تقليداً وطنياً .

ليتك تحافظ على فرائض دينك ، بقدر ما يحافظ الأوربي على عادات وطنه
وتقاليد قومه .

يَعُدُّ الأوربيُّ الدخولَ على قومه ، وقبَّعته على رأسه ، منافياً للأدب
وللعادات القومية .

أَيكون رمضانُ وصومُه وحرمتُه وقومُك ، أيها المسلم ، واعتقادُهم في
رمضان واحتفاؤهم بمقدمه وموسمه — أتسكون منزلة كلِّ ذلك في نفسك
أحطَّ من منزلة القُبَّعة في نفس الأوربي ؟

لمثل هذا ياسليم يذوب القلب ، وليس لشرب الدخان في مجلس القرآن .

ما هو الكوثر

لو التقيت هذا السؤال على أيّ مسلم كان ، لأجابه على الفور : إنه نهر في الجنة . سواء في هذا الجواب عامة المسلمين ومعظم خاصتهم . وقد ألقى هذا السؤال نفسه بالأمس ، في بعض مجالس القاهرة فاحتدمت من أجله نار الجدال ، بين شاب نجيب وبين سائر الحاضرين . وقد عجب هؤلاء من جرأة ذلك الشاب وقوله : إن الكوثر ، هو كناية عن الخير الكثير الذي أعطاه الله نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد امتن عليه به في القرآن ، إذ قال تعالى : إنا أعطيناك الكوثر ،

ثم قال ذلك الشاب : إن الواجب على كل مسلم أن يستدل بصريح الآية الكريمة ، على أن الله تعالى أعطى نبيه كوثرًا ، وكرّمه به . هذا هو القدر الذي نحن مكلفون أن نعتقده - معشر المسلمين - حسب إرشاد القرآن وإذا أردنا أن نعتقد في الكوثر اعتقادًا آخر ، من مثل معرفة كنهه وصفته وجلية أمره ، كان علينا أن نرجع في ذلك إلى دليل قطعي يصح الاعتماد عليه في هذا الاعتقاد : إذ أن معنى العقيدة في اللغة ، هو الشيء الذي تشد عليه النفس أي تقطع به ، وتجزم بصحته . والعقد الشد وإحكام الربط . ولا يمكن أن تشد النفس على شيء ، وتجزم به من دون أن تطمئن إليه وتفهمه بدليله : فما معنى أن نسمي الشيء عقيدة ، ولا يكون مقطوعًا به عندنا ولا دليل له سوى أثر أو خبر شاع بين الناس ، ولم تتوفر الأدلة على صحة نقله وصدق روايته . فنظر بعض الحاضرين إلى بعض ، وكان فيهم بعض الشيوخ وشعروا بأنه

يعرض بهم ، ويضعف القول بأن المراد بالسكوثر النهر الجارى فى عرصات الجنة .

فانبرى للشباب أحدهم ، وقال : أليس السكوثر النهر ؟ ألم تتوفر الأدلة على ذلك ؟ فأجاب الفتى : إننا اعتقدنا بأصل وجود السكوثر استنادا إلى الآية القرآنية الصريحة ، أما كون السكوثر هو النهر فليس من دليل قطعى عليه فيما نقل إلينا من الآثار .

فقالوا له : وإذا لم نظفر بالدليل القطعى من الآثار ، لضرب صفحا عن الاعتقاد بالسكوثر فلا نقول بأنه نهر أو غير نهر ؟ قال علينا - حينئذ - أن نرجع إلى النظر فى كلمة دكوثر ، من حيث اللغة ، وما تفهمه العرب منها إذا وردت فى كلامهم وأساليب خطابهم ، فاعترضه شيخ من زاوية المجلس . وقال له : أن كون السكوثر نهرآ فى الجنة أمر معروف ومشهور بين المسلمين ، ويعدونه فى عقائدهم ، ولا حاجة للغة عربية ، ولا لروايات نقلية . وطالما ذكره الخطباء على منابرهم ، والوعاظ فى حلقاتهم ، وأودعه الشعراء أبياتهم . من ذلك قول الشاعر المبدع :

(كتب الرحمن على فمها إنا أعطيناك السكوثر)

فتبسم الشاب لقوله ، وزوى وجهه عنه من دون أن يرد عليه ، وإنما رد عليه بعض رفاقه قائلا : إن عقائدنا الإسلامية لا يليق أن يستدل عليها بعضات الخطباء ، ولا خيالات الشعراء .

وكان فى المجلس بعض الصلحاء المكثرين من تلاوة الحديث وقراءة كتبه ، فاتجهت أنظار الحاضرين إليه ، وتوقعوا منه كلمة فى الموضوع ، وكان

متكثراً فاستوى وأحسن جلسته، وقال : روى أنه لما أنزلت السورة، قال صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وَعَدَنِيهِ رَبِّي، فيه خير كثير، ثم قال الأستاذ (وروي في صفة ذلك النهر أنه أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافته الزبرجد، وأوانيه من فضة، عدد نجوم السماء. وروي أيضاً أنه لا يظأ من شرب منه أبداً، أول وارديه فقراء المهاجرين الدَّيْنَسُو الثياب، السُّعْنَتِ الرُّؤس، الذين لا يُزَوِّجون المنعَّمات، ولا تفتح لهم أبواب السُّدَد (جمع سدة وهي باب الدار. أي تغلق في وجوههم أبواب العظام فلا يؤذن لهم بالدخول) يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره (أي يموت ولم تقض له حاجة) لو أقسم على الله لأبره .

كان الأستاذ يروي هذا، وعيون الحاضرين تتطلع نحو الشاب، فقال الشاب : إن الصفات والروايات لا نهاية لها، ولكنها لا تغني غناء في هذا المقام الذي نرتاد فيه لأنفسنا عقيدةً مستندة إلى دليل قطعي، شأن كل العقائد الإسلامية . وإذا لم نظفر بذلك الدليل من النقل، رجعنا إلى اللغة وبحسنا عن معنى الكوثر، واعتمدنا في تفسيرها على ما قاله أرباب اللغة أنفسهم .

فقالوا له : وهل اللغة في مثل هذا المقام حجة، يصح أن نستند إليها كدليل قطعي؟ قال : لا شبهة في ذلك، لأن القرآن عربي كما ورد في القرآن نفسه، وقد أنزل لتفهمه العرب . ثم يُتحدَّون بأقصر سورة من مثله، فلو لم تكن اللغة العربية ومعاني كلماتها المعهودة، لدى أهل اللسان حجة لساغ للبشركين المتكلمين بها أن يقولوا أن للقرآن وللكلماته معاني اصطلاح عليها غيرنا، لا عهد لنا بها، ولا تأتلف مع معاني لغتنا . فنحن معذورون إذا عجزنا

عن فهم القرآن . والإتيان بمثله ، وتسكون حجتهم في ذلك قوية لا يمكن ردها . أما وقد قلنا لهم إن القرآن أنزل بلفظكم ، وفي معاني كلماتكم ، وعلى ما تعارفتم من الأساليب والاصطلاحات ، فيكون نسكو لهم عن الإتيان بمثله إذ ذاك عجزاً ظاهراً ، وتحق الكلمة عليهم . فقال الحاضرون للشاب : وإذا لم يكن السكوثر بمعنى النهر الذي في الجنة فما يكون معناه ؟

قال : حتمت أهل اللغة . والعارفون بأسرارها ، واشتقاق كلماتها ، أن السكوثر مشتق من الكثرة ، وتفيد صيغته المبالغة فيها . فمعنى « السكوثر » المفرط في الكثرة . وقد كان لأعرابية ولد سافر عنها وشط مزاره ، وكاذ ينقطع خبره ، ثم رجع إليها غانماً راجحاً . فقالوا لها : بم آت ابنك ؟ قالت : « آت بكوثر » أي بخير كثير . ومدح بعض الشعراء عبد الملك بن مروان فقال فيه :

(وَأنت كثيرٌ يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا)

كأنه يقول وكان أبوك مروان مفرطاً في الكثرة : كثرة مال أو خير أو عطاء أو ما يشمل ذلك .

فانظروا كيف أن أهل اللغة إلى زمن بني مروان - أي بعد انقطاع الوحى - كانوا يستعملون « السكوثر » ويريدون منه الكثرة في الخير . فإذا ثبت أن معنى « السكوثر » ما قلناه وأننا مكلفون أن نفسر القرآن بلغات العرب وما تعارفوا عليه في كلامهم ، وجب علينا أن نقول : إن المراد بالسكوثر الوارد في القرآن هو الخير الكثير كأنه تعالى يمتن على نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه « الخير الكثير » ، وأي خير أكثر وأعظم من جعله نبياً

وحبيباً وقوله له (وإنك لعلی خلق عظیم) وأعطاه في الآخرة أرفع المنازل وأسمى المراتب إلى غير ذلك من المحامد والمناقب . ولما أراد القوم أن يراجعوا الفتى في أن روايات أهل اللغة لا تعارض روايات أهل الأثر، قال لهم : وهذا ابن عباس حبر الأمة وعالمها قال — وقد سئل عن السكوتر : إن معناه الخير الكثير . فقال له سعيد بن جبیر : إن ناساً يقولون : هو نهر في الجنة فأجابه ابن عباس : والنهر أيضاً في جملة الخير الكثير .

ويجب أن نلتبه هنا إلى شيئين : (١) أن سعيد بن جبیر قال « ناساً يقولون ، وهذه العبارة تشعر بأن القائلين مجهولون : أو معروفون ولكن لا يوثق بقولهم كأن يكونوا أكثروا من مشافهة مُسَلِّمَةِ اليهود والنقل عنهم . يفهم ذلك من كلمة « ناس » كلُّ من أوتي نصيباً في فهم لغة العرب واستعمال كلماتها . (٢) قول ابن عباس « والنهر من الخير الكثير » يشعر بأنه لا مانع من أن يكون في الجنة نهر بالصفات السابقة، ويكون من جملة السكوتر الذي أعطى لنبينا صلى الله عليه وسلم ، لكنه — أي ابن عباس — لم يرد أن يفسر « السكوتر » الوارد في القرآن بالنهر وحده، كما اشتهر بين ناسٍ من المسلمين لا يؤبه لهم .

ثم اعتدل الفتى في مجلسه وقال : وهأنذا أعتقد في كلمة السكوتر الواردة في القرآن ما كان يعتقد حبر الأمة ابن عباس : فأقول : إنه صلى الله عليه وسلم قد أعطى الخير الكثير ، وقد يكون في ذلك الخير نهر في الجنة : فالخير الكثير هو العقيدة الواجب على كل مسلم أن يحتفظ بها ويضمها بين جوانحه كما تضم الأم ولدها .

وعلى هذه الطريقة يجب أن نسلك في فهم عقائدنا والاستيثاق منها ، لتسكون مبنية على برهان ودليل ، ثم لا يكون للطاعنين فيها إليها سبيل .

الصحافة والقرآن

وحرية القول

كان يبلغنا أن أهل المغرب الأقصى ، لا يستجيزون مطالعة الجرائد ويرونها من المحدثات أو البدع في الدين ويستدلون على ذلك بآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ، وليست الجرائد سوى لهو ، وأحاديث ذات لغو فيكون مشتريها مذموماً ، وعمله ممقوتاً ، وإذا كان شراء الجرائد أو الاشتراك فيها محظوراً كان إصدارها أو بيعها محظوراً بالضرورة إذا القاعدة الأصولية : إن كل ما حرم بيعه حرم شراؤه ، وعلى العكس . ومن ثم تتابعت السنون ، ولم تنشأ في مراکش جريدة سوى واحدة على ما أظن تنشر في طنجة وصاحبها مسيحي سوري ، ولا نعلم إن كان لسماعته مشتركون من أهالي البلاد أم لا ؟ .

ومنذ أيام حاول بعض المراكشيين أن ينشئ في فاس جريدة وطنية تخدم مصالح البلاد وتنشر شيئاً عن شؤون المملكة ، وسياستها الخارجية ، وأحوالها الداخلية فلقى تعصيماً من ملك مراکش (مولاي عبد الحفيظ) ، ولكن أولئك العاملين بآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ، — ومعظمهم من أعيان المملكة والقابضين على زمام مصالحها — عارضوا

في إنشاء الجريدة ، وجعلوا يثيرون العامة عليها ويلقون العراقيل في سبيل إنشائها .

وإذا قلنا للعاملين بهذه الآية : إن الآية لا تريد بنا شراً ، ولا تحرم علينا أن ينتفع بعضنا برأى بعض ، ولا أن يكتب أحدنا إلى أخيه جواباً يودعه ما يراه من مصلحتهما كليهما . إذ ليست الجرائد في الواقع ونفس الأمر سوى « جوابات » ، تتردد بين منشىء الجرائد وقرائها ، وليس كل ما تتضمنه الجرائد هو من هو الحديث ، فإن فيها نصحا وإرشاداً ، وتعلماً ، وتربية وأمرأً بمعروف ونهياً عن منكر ، ولو قلنا لهم أيضاً إن من يتأمل في سياق الآية وجدها منزلة لغرض آخر ، وتمام الآية هو « ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » ، فإن العلماء قالوا في تفسيرها وسبب نزولها : إن النضر بن الحارث كان يشتري المغنّيات فلا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا أنطلق به إلى قينته فيقول لها اسقيه وغنّيه . ثم يقول له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقا تل بين يديه : فقله تعالى « ومن الناس ، أى ومن الناس المشرك نضر الذى يشتري بماله الملهى ، ليصد المسلمين عن سبيل الله وهو دين الإسلام . وقوله ويتخذها هزواً أى يتخذ سبيل الله هزواً ، وكلمة « سبيل » ، تؤنث وتذكر ، ومن المفسرين من قال معنى « يشتري هو الحديث » ، يستبدله بصدق الحديث — إذا قلنا لهم كل ذلك أعرضوا وحوقلوا : وقالوا : إن الآية تنطبق على كل بيع وشراء تكون السلعة فيه حديثاً ذا لغو باطل ، والعبرة لعموم اللفظ . لا لخصوص السبب ، وزادوا على ذلك قولهم : إن في الآية إعجازاً أيضاً . ذلك أنها دلت على حدوث أمر غيبي ، وهو أنه سيظهر في المستقبل

صحائف تتضمن لهر الحديث ، وتباع على الناس فاحذروا أيها المسلمون من شرائها والاغترار بأقوالها ثم يقولون : إن هذه الآية كما نهت عن شراء اللغو والله في ذلك الزمان ، أشارت إلى النصيح لنا بالعدول عن شراء اللغو في الزمان الآتي . والتفسير بالإشارة معهود عند العلماء وكبار الصوفية بأبعد مما قلناه في الآية المذكورة . فقد قال بعض كبار الصوفية في قوله تعالى : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » إنه المراد بمریم نفس الإنسان فقوله « يا مريم ، أى يا نفس » اقنتي لربك واسجدي ، أى صلى له وتعبدى وأخلصى فى عبادتك . وإذا قلنا لهم : إن سياق الآية ولحاقها إنما يدلان على أن الخطاب للسيدة مريم أم سيدنا عيسى ، يقولون نعم أنزلت فى خطاب مريم الصديقة ، ولكن فى ذلك إشارة إلى النفس الإنسانية أيضاً . فيكون من جميل الإعجاز وأعلى درجات البلاغة أن تحتل الآية عدة وجوه وتتضمن جملة رموز .

والذين يحرمون قراءة الجرائد ويرون الصحافة أمراً منكراً ، يأخذون معنا فى تفسير الآيات وتأويل معانيها على نحو ما ذكرنا . فكلما أغلقنا فى وجوههم باباً ، فتحوا من جهات أخرى أبواباً وكلما حاولنا إرجاعهم إلى الحق أوسعونا لوماً وعتاباً ، وإن أحسن طريقة فى الوصول إلى غرضنا من إثبات فضل الجرائد وجوازها شرعاً أن نأخذ من آى القرآن ما يكون دليلاً لنا ، وبرهاناً على صدق قولنا ، على نمط ما يصنع المراكشيون والصوفيون . فكما استدلوهم بآية واحدة ، يمكننا نحن أن نستدل بطائفة من الآيات ، بل إن تلك الآيات التى نحتاج بها لا تدل على مجرد جواز نشر الجرائد ، بل تدل أيضاً على وجوب نشرها وحرية القول فيها ، وأنه ينبغي للمحررين أن يسهبوا فى

بيان أفكارهم ، والكشف عن آرائهم ، من دون خوف ولا تقية ولا جمجمة وأنه لا يجوز مصادرة الكتاب فيما يكتبون ، ولا مخبرى الجرائد ومكاتبها بما يرسلون .

قال تعالى في صدد إرشادنا إلى أحكام عقود المعاملات، وكتابة الوثائق المتعلقة بها (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى من أراد كتابة الوثيقة بين المتدائنين، فليكن متلبساً بالعدل والوقوف عند الحق، لا يزيده أو ينقص في شروط الوثيقة ، ولماذا لا نقول: إن في الآية إشارة أو تلميحا لنا معشر الأمة بأن يقوم فينا كتاب أكفاء يحاربون البدع، ويُشرعون طريق الفضائل بيننا، ويرشدوننا إلى كل ما فيه نفع لنا في ديننا ودنيانا؟ وماذا يرى صديق (المراكشى) أو (الصوفى) في فهمنا هذه الإشارة من الآية إذا كان هو يقول: إئتني أفهم من (يامرئيم اقنتى) — يا نفس اقنتى .

ثم قال تعالى : ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، أى أن على الفقيه الذى يكتب وثائق العقود ، أن يتحرى الحق فيما يكتب، وأن يطبق الوثيقة على الشروط التى تكفل صحتها . نعم هذا معنى الآية ، ولكن لماذا لا نفهم منها أيضاً أن القرآن يشير على الكاتب الصالح أن ينصح لقومه فيما يكتبه فلا يغشهم ولا يخدعهم ، ولا يدع ما يعلم أنه مفيد لهم في ترقية شؤونهم إلى ما لا يعلم من أساليب التقوية والتضليل ، ومحصل ما تأمر به هذه الآية أنه يجب على الكاتب أن لا يمتنع عن الكتابة في الشؤون التى يعلمها ويشق من صحتها مثلاً وفقه الله إلى علمها ، وفي ذلك تنبيه له إلى أن العلم نعمة عايه من الله ، والمحافظة عليها يكون بينها في تأييد المصلحة العامة . على حد قوله تعالى : وأحسن كما أحسن الله إليك ،

ثم قال تعالى ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً ، يخاطب المتدائنين وينصح لهم بأن يكتبوا الوثائق بينهم ، ولا يسأموا من كتابتها فيتساهلوا على زعم أنهم الآن أصدقاء ، إذ ما يدريهم أن ينقلب الحال ويتعادوا ويرجعوا إلى المحاسبة على النقيير والقطمير . فسواء أكان الدين صغيراً أو كبيراً يلزمهم أن يكتبوا به وثيقة ، أو سواء أكان الصك الذى يريدون كتابته مطولاً أو مختصراً ، كيفما كان حاله يلزمهم أن يكتبوه ويعمل به بعضهم على بعض .

وفى ذلك إشارة أو تصريح إلى نصيحة كتّاب صحف الأخبار بأن يواصلوا الدأب والسعى فى الكتابة إلى أمهم . سواء أكان الشأن الذى يكتبون فيه صغيراً أو كبيراً ، وسواء أكان الحق الذى يسمعون فى تأييده صغيراً أو كبيراً ، وعليهم أن يسهبوا القول ويطلوا الشرح ما شاؤوا وشامت مقدرتهم . فإن فى ذلك هداية وإرشاداً إلى أمهم .

ثم قال تعالى ، ولا يُضَارَّ كاتب ولا شهيد ، أى لا يحسن أن يلحق الضرر بكاتب الوثيقة والشاهد فيها ، بأن لا يُعطيا أجرتهما مثلاً ، ولا سيما إذا كان الشاهد انتقل من بلد إلى بلد أو تحمل نفقات فى سبيل أداء الشهادة . وكل مناله أن يفهم من الآية فهماً إشارياً رمزياً ، هو أنه لا يسوغ التضيق على كتّاب الجرائد فيما كتبوه ، بعد أن يكونوا بذلوا مجهودهم واستخاروا الحق وتحروا العدل والنفع . كما أنه لا يسوغ أن يطارد مخبرو الجرائد ومكاتبوها إذا بحثوا ودققوا وراسلوا جرائدهم بما وصل إليه علمهم بعد التحرى وتوخى الحق والمصلحة .

فهذه الآية تشير أو تومئ إلى عدم جواز التضيق على المطبوعات

ولا تقييد حرية الأقلام ولا إلحاق الضرر بالكتاب ، بعد أن يكونوا
متلبسين بالعدالة ، وقد تحروا أن يكتبوا كما علمهم الله من حيث مطابقة
ما يكتبون لاعتقادهم وبراءته من شوائب الهوى والغرض .

وإذا لم يكتب (المرأ كشى) أو (الصوفى) بهذا القدر من الآيات ، ولم
يقنعه صحة الاستدلال بها على أن فى القرآن الكريم رموزاً كثيرة ، إلى فضل
الصخافة ومزاياها فى نفع الأمم ، وإلى وجوب حرية القول والإخلاص فيه
والمطابقة بينه وبين الاعتقاد - إذا لم يكتب بذلك - فإن فى القرآن والسنة
أيضاً دلائل أصرح وإشارات أوضح ربما عدنا إليها فى فرصة أخرى
إن شاء الله .

^(١) أُمَالِي أُدَبْ

فِي لُغَةِ الْعَرَبِ

(أَوْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَخْلَاصِ)

القرآن كلام الله ، لسكنه أنزل بلغة العرب ، وروعي فيه أسلوبهم ، وبلغ من ذلك مبلغاً أعجزهم ، وتقطعت دونه أعناقهم ، فلا نكون مباعدين عن موضوع أُمَالِينَا ^(٢) إذا أودعنا أُمَالِينَا هذه آيات من القرآن ، ثم فسرناها وبيّنا وجه الإعجاز فيها ، وعجبنا القراء من فصاحة مبانيها ، وبلاغة معانيها .

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد)
(الصمد) بسكون الميم مصدر صَمَدَ إليه إذا قصد إليه ، فإذا فتحت الميم وقلت (الصمد) كان معناه سيّد القوم . سُمِّيَ بذلك لأن الناس يقصدونه في قضاء حاجاتهم . و (المصمّد) على وزن (مُعْظِم) المقصود .
(الكفو) المثل . فكما يقال : كافاً فلان فلاناً بمعنى جازاه يقال أيضاً : كافاً زيد عمرأ إذا مثله . ونقول : فلان كفاء فلان بكسر الكاف وكفؤه

(١) كتبت سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ)

(٢) لنا طائفة كبيرة في المقالات بعنوان (أُمَالِي أُدَبْ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ) ربما نشرناها مطبوعة في كتاب على حدة . وهذه إحداها .

بفتحها وكُفُوهُ بضمها وكُفُوهُ - كل ذلك بمعنى أنه مثله . ويقال في الجمع (أكفاء) . ثم شاعت (الكفاءة) في الماثلة بين الزوجين حسبا ونسبا .

(بنوداريم أكفاؤهم آل مسمع) وتنكح في أكفائها الحبيطات (آل مسمع) على وزان منبر قوم من العرب سموا باسم جدتهم مسمع و (الحبيطات) أولاد الحرث بن مالك بن عمرو . كان يسمى هو (الحبيط) ككتيف ثم سمي أولاده الحبيطات .

يقول الشاعر : إذا أراد هؤلاء الحبيطات أن يتزوجوا ، فليتمسوا لهم زوجات من أمثالهم ، وليدعوا بني داريم لآل مسمع : فإنهم لهم أكفاء ودمهم لدمهم بواء . و (البواء) في القصاص بمثابة الكفاءة في النكاح : يقال : باءدم فلان بدم فلان إذا عدله وسأواه . ومنه قول مهلهل مخاطبا ابن الحرث بن عباد لما قتله : *بؤ بشيسع نعل كليب* ، و (بؤ) فعل أمر من البواء . أى لم أقتلك ليكون دمك بواء لدم أخى كليب ، وإنما لتكون بواء ومعاذ لا لشيسع نعله فقط و (شيسع) النعل و (قبال) النعل الزمام الذى يكون بين الإصبع الوسطى والى تليها ، فيمسك القدم أن تنسل من النعل . والشيسع إنما يكون للنعل الحجازية فهو لها بمنزلة الزمام يكبح جماحها ، ويمنع شرادها ، أما النعال الأخرى فذل لمرؤضة : لا تجمع ولا تشرذ .

(رجع إلى سورة الإخلاص) : يقول الله تعالى لنبيه : أعلن يا محمد عقيدة التوحيد واجهر بها بين الأمم والشعوب الذين ضلوا فيها ، وغابوا عن حقيقتها . و (قل) لهم (هو) أى الحال والشأن الذى أنبه أذهانكم إليه (الله أحد) أى قد ثبتت له الوجدانية من كل وجه : فلا يمكن أن يتطرق

إلى ذاته أو صفاته أو أفعاله شيء من التعدّد (الله الصمد) أى الذى يلغى أن تصمد إليه الناس ، ويقصدوا إليه فى جميع شؤونهم : فلا يتكلموا إلا على إمداده وتوفيقه ، وليدعوا الاستغاثة بالشجر والحجر . والشمس والقمر ، أو أحده من البشر ، أو آية قوة وقُدرة من القوى والقُدَر . (لم يلد) أى أنه تعالى لم ينبثق منه أو ينفصل عنه شيء غيره (ولم يولد) لم ينبثق هو ولم ينفصل من شيء آخر . (ولم يكن له كفواً أحد) أى ليس إله غيره يكافئه ويساويه فى صفات الألوهية ، ومزايا الربوبية .

هذه السورة على قصرها ، ووجازة جملها ، استوعبت الردّ على جميع الأمم الذى أسأوا فهم الوحداية ، وأعلنت لإبطال جميع أنواع الشرك : فبعد أن قرّرت الوحداية المطلقة له تعالى بآية (الله أحد) انبرت للمشرّكين الذين يعترفون بوجود الله لكنهم يقولون : بأن هناك وسطاء بيننا وبينه نستشفع بهم لديه ، ويقرّبونا زُلّقى إليه . فقالت لهم السورة : (الله الصمد) أى هو وحده الصمد ، والمقصود فى طلب كل ما لا يقدر البشر على كسبه وفعله ، أمّا ما يتقدرون عليه فيجوز الاستعانة بالشرفه .

ثم عطفت السورة إلى أقوام آخرين يعتقدون بالله لكنهم يقولون إنه انبثق منه غيره . ومعنى (انبثق) انفصل : يقال : انبثق ماء النهر إذا كسر شطّه وانفجر . والموضع الذى يندفق منه الماء وينبثق ويسمى (البثق) بكسر الباء . ومن هؤلاء الأقوام بعض المشرّكين الذين يقولون : إن الملائكة بنات الله فقالت السورة لهم ولأمثالهم (لم يلد)

وهناك قوم آخرون ذهبوا إلى أنه تعالى انبثق وانفصل من آخر كان

موجوداً قبله ، وذلك الآخر هو الشيطان المعبود الأول : فالشيطان في زعم هؤلاء أزلى قديم لا أول له . قد انبثق منه الباري تعالى وتولد عنه . ثم قام هذا الابن بعد ذلك يضادُّ أباه وينازعه الألوهة ، فردّت السورة عليهم بقولها (ولم يولد)

وقد بقي معنا من الطوائف طائفة زعمت أن له تعالى في الألوهية نداً يماثله فيها ، ويسامه مزاياها ، وهم الذين يعتقدون بآلهة متعددة ، أو بإلهين فقط : كالمانوية القائلين بالنور والظلمة . ويلقبون الأول بإله الخير ، والثاني بإله الشر . ويزعمون أن كلا من هذين الإلهين كفؤ لقرنه . ومعادل له في خصائص الألوهية : تارة يغلب هذا ذاك ، وطوراً يغلب ذاك هذا . فردّت السورة على تلك الطائفة بكلمتها الأخيرة (ولم يكن له كفواً أحد)

وإن المتأمل في هذه السورة ليحار في أيّ الأمرين أحقُّ بأن يكون مظهر الإعجاز : ألفظ السورة وأسلوبها ؟ أو معناها ومضمونها ؟

السورة مؤلفة من خمس جمل : أربع منها تتركب من كلمتين : اثنتان من تلك الأربع تتركبان من اسمين ، والاخريان تتركبان من أداة واسم . وانظر أيها القارىء ، هل يمكن حذف كلمة من تلك الجمل الخمس أو زيادة كلمة عليها ؟ وهل في ألفاظها لفظ سخيف أو في معانيها معنى غير شريف ؟

حقاً إن هذه السورة في الرصف والإيجاز ، غاية في البلاغة والإعجاز ، ومحال أن نشعر نحن اليوم أو نتأثر بها كما كان يشعر ويتأثر عرب الجاهلية ، وذلك لسببين :

الأول : أن العرب لذاك العهد لم تفسد ملكاتهم وأذواقهم كما فسدت ملكاتنا وأذواقنا نحن اليوم : ففسد كانوا لأسرار لغتهم أزكن ، وببلاغتها ألحن ، ولمواقع الإعجاب والإعجاز فيها أفطن

والسبب الثاني : أن القرآن فاجأ القوم مفاجأة على غير عهد بأساليبه ومن دون أن يسبق لهم استئناس بألفاظه وتراكيبه ، فكانوا يتأثرون بأى القرآن ، ويدهشون لبلاغتها أكثر منا نحن الذين ألفنا نظم القرآن وغفلنا عن عجائبه ، لكثرة ما نردده ونقرؤه ونسمعه صباح مساء ، ولكثرة ما أخذنا الكتب والشعراء من صدر الإسلام يقتبسون من كلماته وتراكيبه وأسانيبه فيودعونها منظومهم ومنشورهم ، وقد حقق مؤرخو الأدب العربى أن الأدب أو اللغة من بعد الإسلام تهملت وتزخرفت ، وحسنت ديباجتها على لسان الكتاب والشعراء أكثر مما كان عليه حالها قبل الإسلام . وما ذلك إلا لتأثير القرآن وشيوع كلماته وتراكيبه وأسانيبه بين أولئك الكتاب والشعراء ، بل بين جميع الناطقين بالضاد : فإذا سمعنا اليوم قوله تعالى (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) لاندعش وتاندعش الجاهلى وتأثره : هذا يدعش لأنه لم يعهد بعد من فصحاء زمانه أنهم استعملوا تلك الكلمات على هذا الأسلوب فى مثل هذا المعنى ، وإنما هم يذهبون فى ذلك إذا أرادوه مذهباً آخر من التركيب والتعبير ، على العكس منا نحن اليوم : فإن أسلافنا منذ صدر الإسلام وبعد أن سمعوا آية (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) حفظوها مفردة ومركبة ، وأكثروا من استعمال كلماتها وتحديث أسلوبها ، فشاعت تلك الكلمات على صور مختلفة ، وقد تحدث فىها طريقة الآية وأسلوبها ، فأنست الأسماع بها ولم يعد الناس يتأثرون ويدهشون ببلاغتها .

فليس من الإنصاف أن يقول قائل - وخاصة المستشرقين ومن تأثر بأقوالهم - إن القرآن وآياته ليست من البلاغة والإعجاز بحيث يدعى

المدعون ، بعد أن شرحنا ما تقدم من السبب ، كما أنه ليس من الإنصاف أيضا أن يقال — والله المثل الأعلى — إن أديسن الكهربائي لا فضل له في اختراعاته ولا مزية له على غيره ، الذين درسوا طريقة هذه الاختراعات وصنعوا مثلها في معامهم :

اختراعاته هذه اعتدناها الآن ، وفقهنا أسرارها بالجملة وسيأتى وقت لا يعود أحد يتفطن إلى مواضع الغرابة فيها ، لكثرة ما صنع الصناع منها ، وتأمل المتأملون في أجزائها وأدواتها ، وأصغى المصنفون إلى ألحانها وأصواتها .

مثال آخر من كلام العرب أنفسهم : يتدل القارىء على مبالغ ذهاب الألفة والاعتماد بالتأثر والاندهال :

نحن نعرف المثل السائر : (وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟) وقد ألفناه وشاع بيننا حتى بين عامتنا في الأسواق وحتى لم نعد نرى في تركيبه وأسلوبه ومعناه غرابة وحسنا ، ولكن لا يمكن أن يكون شأن هذا المثل حين أول ناطق به كشأنه في هذا الحين ، كما لا يمكن أن يكون وقعه في أسماعنا كوقعه في أسماع الرهط الذين قيل بينهم ، وأنشد على مسمع منهم

نظر شيخ طاعن في السن من الأعراب إلى امرأته العجوز الدرديس وقد نصنعت وتسكملت وتعطرت وخضبت كفيها بالحناء ، وابست ثيابا صفرا كما تلبس عذارى الحى ، وكان الشيخ قد أحس من قبل أن عجوزه تسرق من مؤونة البيت ، وتعطى ما تسرقه العطار : تستبدل به الطيب والكحل والحناء والعطر ، فاغتاظ منها وأنشد :

(عجوز ترجى أن تكون فتية وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر)
(وما غاظنى إلا خضاب بكفها وكحل بعينها وأثوابها الصفرة)

(تدس إلى العطار سـلعة بينها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر)

(الحِب) الجنبان قل لهما و (بعير ملحوب) أى مهزول . (تدس)

تعطى خفية ومن غير أن يطلع عليها أحد و (سلعة) بيتها كناية عن السمن والدقيق وما أشبهه ، فما ظنك بوقع هذا المثل (وهل يصلح العطار ما أفسد

الدهر) فى نفوس أهل الحى رجالا ونساء ، ومبالغ تأثيره فى قلوبهم ، وهم بعد لم يألفوا استعمال كلمة العطار فى مثل هذا التركيب ، ولا إيرادها فى مورد

التنكيت والتبكيت ، وقد هاج هذا الشعر الشبيخة وأثار سخطها على بعلمها الشيخ مذ شمرها بين نساء الحى وجرح كرامتها ، فاستصرخت معارفها من النساء ،

فأقبلن جميعاً عليه يضربنه ويلطمنه ، فاستغاث بالرجال فلم يكن أحد منهم فى الحى ينصره عليهن ، ويُنقذه من بين أيديهن . ثم لم تسكتف الشبيخة

بضربه ولطمه ، بل رأت أن تتشفي بهجوه وشتمه ، فقالت ترد عليه :

(ألم تر أن النّاب تحلب علبه و يترك ثلّابٌ لا ضراب ولا ظهر)

(النّاب) الناقة المسنة و (علبه) بضم العين إناؤه من جلد يحلبون فيه

و (الثّلب) بكسر الثاء الجمل المسن و (الضراب) نزوان الفحل .

تعرض العجوز بزوجه وتقول له : كيف تزعم أن الدهر أفسدنى فلم

أعد أصلح لشيء ١١ أنت الذى ماعدت تصلح . أنا وأنت كالناقة والجمل

المسنين ، وكثيراً ما تراهم يحلبون هذه الناقة فتملأ العلبه لبناً ، أما ذاك الجمل

فـيترك مهملاً فى المرعى : لا يلتفت بضرابه ، ولا بالركوب على ظهره

ولكن باحضرة الشاعرة ، والزوجة الشريرة القادرة ، إذا كان زوجك

على ما ذكرت ، ومن العجز ، بحيث وصفت ، فلن تزيينين ؟ وعَلامَ

تنخضين وتتعطين ؟

القرآن في مستنجر الطعانه^(١)

كثيرا ما نسمع أن فلانا من كتّاب الإفرنج طعن في القرآن ، أو حط من قدر القرآن ، فتارة كان ينبرى للردّ عليه فضلاء من المسلمين وآونة يتصدّى له فاعزل من منصفى قومه ، فيؤسّفه رأيه ، ويدحض حجته وآخر ما بلغنا من هذا القبيل أن الموسيو (سالمون ريناش) ألف كتابا في تاريخ الأديان حمل فيه على القرآن حملة منكرة ، وجردّه من كل مزّية فيه حتى مزّية الفصاحة والبلاغة فرغم أنه خلّو منها ، بعيد عنها ، فلم يُطق الدكتور (موريس) الصبر على سماع قوله : فردّ عليه ردّا عنيفا ، وقد نُشر الرد في جريدة (لا بارول فرنسيز رومان)

وكلا الرجلين من فضلاء الكتّاب الفرنسيين ولا سيما الأخير منهما : فإنه من كبار المستشرقين ، وقد حذق اللغة العربية ، ووقف على آدابها وأسرار بلاغتها ، ومارس الترجمة منها إلى لغته ، وشهرته هذه حملت حكومة فرنسا في هذه الأيام الأخيرة على تكليفه نقل القرآن إلى اللغة الفرنسية وهو الآن يبذل قصارى جهده في أن يترجم القرآن ترجمة يحافظ فيها على بلاغته وعدم ضياع شيء من مقاصده .

أما ما كتبه هذا الدكتور الفاضل في الرد على الموسيوريناش فننقله هنا ثم نقفيه بسرد أمور نظنها منبغت نقد الناقلين ، وماشأأ وهام الواهين

قال الدكتور

« ربما لا يجد المسيو (سالمون ريناش) أحداً أكثر منى إعجاباً بفضله وشدة ذكائه ، وكثرة إنصافه ، غير أن إعجابي به لا يحملني على التسليم له في كل ما يقول ، فإنني أرى أن التسامح معه إلى هذا الحد يزيد غلواً في أفكاره ، وابتعاداً عن الحق في آرائه ، وقد دعاه هذا التسامح من بعض معارفه إلى إعادة نشر كتابه (تاريخ الأديان) فطبعه على حسابه وتحت توقيعه ، من دون أن يعيد نظره عليه ، فيصحح غلطه ، ويتشكك في ما فرط منه .

ومن غريب أمره أنه تحامل على الطبقة الراقية من فضلاء العرب ، فلم يدع كلمة لعن أو قذف حتى جاد بها عليهم عفواً ، وقد أشبهه في صنيعه هذا رهبان (جرنباد) المعمدانين الذين عاشوا في القرون الوسطى

أما القرآن فقد قال في وصفه : إنه ركيك العبارة ، خال من الفصاحة والبلاغة ، ولم يكتب بذلك بل تفتوه بأشنع منه ، بما أفضّل السكوت عنه ، ولقد قلبت نفسي لقول المسيو (ريناش) واضطربت حواسي : إذ لو جاز لامرئ غير مسلم أن يرتاب في صدق القرآن ، وصحة دعواه ، فلا يجوز له أبداً أن يرتاب في صحة عبارته وكونه في الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة ، ومن لم يسلم بهذا كان مخطئاً بل كان متهماً في إخلاصه ، وإن شئت قلت في عقله

إن كان للقرآن منقبة لا يشوبها نقص فهي الفصاحة والبلاغة ، أو كان له مزية عظمى يفتخر بها ثلثمائة مليون من البشر ، فهي استعلاؤه على سائر الكتب السماوية من حيث سلامة مبانيه ، وجمال معانيه ، بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبني البشر ، فهو قد تضمن

أناشيد لإسعادهم خير آمن أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه
الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد الله الذي أعطى كل شيء خلقه ،
وهدى كل شيء إلى ما يطمح إليه استعدادة . إن القرآن بمثابة ندوة علمية
للعلماء ، ومُعجم لغة للغويين ، وأجرومية نحوي لمن أراد تقويم لسانه ،
وكتاب عروض نخب الشعير وتهذيب العواطف واتسكاويدبا (دائرة
معارف) عامة للشرائع والقوانين ، وكل كتاب سماوى جاء قبله من لدن
(داود) إلى زمن (جان باتموس) لا يساوى أدنى سورة من سورته في
حسن المعاني ، وانسجام الألفاظ

ومن أجل ذلك ترى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية
يزدادون تمسكا بهذا الكتاب ، واحتراما له ، كلما ازدادوا علما بالحقائق ،
ويزدادون غراما في عجائبه ، واقتباسا لآياته : يزينون بها كلامهم ويبنون
عليها آراءهم ، كلما ازدادوا رفعة في القدر ، ونباهة في الفكر . وطئن
هؤلاء القوم نفوسهم على حب القرآن وتقديره ، وما عادوا يفكرون قط
فيما أوتيت الأمم الأخرى من كتاب أو شريعة ، ولا يحسدونهم على شيء
من ذلك : فقد رأوا في كتابهم غنية عن كل كتاب ، وفي فصاحته وبلاغته
مجتزا عن كل فصاحة وبلاغة في سواه . يدلك على صحة قولنا أنك ترى
كبار الكتّاب والشعراء الإسلاميين يطأطئون رؤوسهم أمام بلاغة
كتابهم ، ويكادون يسجدون لعجائبه التي تتجدد ، وأسراره التي لا تنفد ،
ويعتونه بخرم الباقي إلى منتهى الأزمان ، وبحرم الزاخر بفصيح الكلام
ورقيق المعاني .

وكنت أتمنى للموسيو (ريناش) أن يتمهل فلا يحكم على القرآن حكمه

القاسى ريثما تتم ترجمتى له ، فيعرف منها مبلغ درجته فى البلاغة وسمو المعانى ، ويتحول ارتيابه فى صحته إلى اعتقاد ثابت ، وإيمان سليم ، وإلا فإن عدم معرفته بلغة القرآن غير كافية للحكم عليه ، كما أن اقتصاره على ترجمتى (ساقارى) و (كازيمرسكى) لا يوصله إلى الغرض المطلوب ، ولا يعطيه حقيقة أمر القرآن . وإن رجلاً عادلاً منصفاً كالموسيو (ريناش) قضى حياته فى خدمة الأدب والتأليف لا يألف من اتباع الحق ، بعد أن يتضح له فيستحج خطأه ، ويرجع عن فريته التى ألصقها بالقرآن ، وغازبها العالم الإسلامى ، ورجوعه هذا كما هو من الواجبات الأدبية ، ينبغى أن يعدّ من الواجبات الوطنية أيضاً . ولعمري إنه ليس من حسن التدبّر ولا من اللياقة فى شيء ، أن نرى ألوفا من المسلمين لا يزالون يترددون فى قبول التبعية الفرنسية . ثم نحمل عليهم فنتفتنّ فى سببهم وشتيمهم ، وعلى دينهم فننسب إليه كل شناعة وخصلة ذميمة ، وعلى كتابهم المقدّس فنصفه بالركاكة والشجرّد من الفصاحة والبلاغة ، ثم ننتظر منهم بعد هذا كله أن ينبذوا الحق ويحضوا الود ، ويحفظوا العهد .

وسوف يعلم الموسيو (ريناش) بعد أن تزداد خبرته بالعالم الإسلامى أن الطبقة المستنيرة فيه أشدّ احتراماً للدين ، وأكثر تمسكاً بأدابه ، والتزاماً لحدوده ، كما أن الناشئين وطلاب المدارس أصبحوا لا يطيقون سماع كلمة احتقار فى هذا الكتاب الكريم ، الذى امتاز عن الكتب السماوية بصحة نسبه من جهة ، ومن جهة ثانية فإنهم يعتبرونه المرجع فى صيانة لغتهم العربية ، والعمدة فى تطبيق أصولهم الدينية .

وبعدُ فإنى أودّ للموسيو (ريناش) ما يوده لنفسه من رواج تأليفه ، وأن

يقع موقعا حسنا في نفوس الفتيّات والسيدات اللواتي اشتد ظلام الجهل عليهن من أمر القرآن فأسانَ به الظن ، ويكون لريناش بعد تصحيح أغلاطه فضل لا يُنسى في تنوير الأفهام ، وإزالة ذلك الظلام اهـ

انتهى كلام الدكتور (مورييس) . وبقدر ما نشكر له تلاففه وإنصافه نرثي للموسيو (ريناش) الذي سألته نفسه أن ينتقد أسلوب القرآن ويحظ من قدر بلاغته ، وهو لم يعرف من اللغة العربية إلا بمقدار ما يعرف علماء الأزهر من اللغة الفرنسية .

أترى يا حضرة الموسيو ، لو قام الشيخ (مدوخ) من علماء الأزهر وقرأ ترجمة تلميذك التي وضعها رفاعة بك كما قرأت أنت ترجمة القرآن التي وضعها (كازيمرسكى) ثم بعد ذلك حكم الشيخ (مدوخ) حكما باتا بأن كتاب تلميذك - الذي يقول الفرنسيون : إنه أفصح كتاب ألف في لغتهم - ليس فصيحاً ولا بليغاً وإنما هو ركيك مُعسلط : أترى لو قال الشيخ مدوخ ذلك ، هل يستلم له الفرنسيون ؟ أم يردّون عليه ويسبّون الجهل والخطل إليه ، ثم يحكمون على علماء الأزهر بأقصى الأحكام ، ويجعلونهم مُثلة بين الأنام ؟

وقد كفانا حضرة الدكتور (مورييس) مؤونة الرد على ريناش، غير أننا ذاكرون بهذه المناسبة أمورا كلية ربما أدى تدبرها ، وإمعان النظر فيها إلى إنصاف القرآن ، وتصحيح الحكم عليه .

(١) القرآن في أعلى رتب البلاغة ، وليست البلاغة في الكلام ، سوى أن يصيب النفوس العاتية المستقرة على الباطل ، فيقودها صاغرة إلى حظيرة الحق . وهكذا دأب القرآن : فقد كان يُشرف على نفوس بلغاء العرب

ويعطونهم في الأمور المخالفة لعقائدهم الموروثة ، فيقطعن على هذه العقائد وبين فسادها ، فلا يكون من تلك النفوس المتكبرة المتحجرة على العناد إلا التصاغر بين يديه ، والتسليم لقوله والإذعان إليه ؟ . وإن أبت الإذعان وقفت موقف الحيرة ، فتارة تزعم أن القرآن سحر ، وطوراً تحذر من تأثيره فتعزى غيرها باللغو فيه والإعراض عنه ، (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه)

هكذا كان موقف العرب إزاء القرآن ، وهذا مبلغ تأثيره في نفوسهم ، وإذا لم يكن هذا التأثير هو البلاغة بعينها فما هي البلاغة إذن ؟

(٢) كل آيات القرآن بليغة ، حتى ما لا نفهمه نحن مما يسمونه المتشابهات ، فإنه إذا تقاصرت العقول عن فهم هذه الآيات المتشابهة بالنظر لفساد اللغة ، وضعف ملكتها في النفوس ، فإن أهل اللغة أنفسهم ما كانوا ليختلفوا في فهمها . أو يقفوا دون إدراك معناها ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون تلك الآيات ولا يمارون فيها ، ولا يسألون النبي (صلى الله عليه وسلم) عنها .

(٣) لم يحىء النبي بالقرآن من عند نفسه ، ولم يدع الوحي اقترام على ربه . والقرآن أكبر شاهد على ذلك . فإن فيه لوماً للنبي (صلى الله عليه وسلم) وعتاباً وإرشاداً أحياناً إلى ما هو الأصوب والأولى ، وإذا أخطأ أمرؤ مهما كان شأنه صغيراً ، يصعب عليه أن ينبّه إلى خطئه على رؤوس الأشهاد ، أو أن يشيع بين الناس أمر خطئه ، ولا سيما إذا كان في صدد تأسيس رياسة لنفسه . وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أنه (صلى الله عليه وسلم) اتبع خلاف الأولى فهي تنبهه وتعاتبه - كقوله تعالى (عبس)

وثولى أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنتفعه الذكرى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) إلى قوله تعالى (فتكون من الظالمين) (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) (وتحشى الناس والله أحق أن تحشاه) - (عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟)
فلولم يكن هذا القرآن وحياً من الله وقد أوجب على النبي (صلى الله عليه وسلم) تبليغه إلى البشر طبق أصله - لكان للنبي مندوحة عن ذكر آيات العتاب والدلالة على الصواب ، فإنه (صلى الله عليه وسلم) - كما يعترف منكرو نبوته - من أعقل الناس وأشدّهم فطانة ، فكيف يُعلن خطأه ؟ ويعرض مركزه للزعزعة والسقوط لولا ما يعرف من أن هذا المركز مؤيد من قبل العناية الإلهية ، وأنه تعالى بالغ أمره ، وأنه مسّوق على غير اختيار منه بسائق سماوى إلى تبليغ جميع ما يلقي عليه ، ويوحى به إليه ؟

د ، لم يُنزّل القرآن ليكون مجموع مسائل فنية ، أو كتاب علم لدراسة الحقائق الطبيعية ، وإذا تعرض أحياناً لذكر السماء والأرض وظواهر الجو ، وعجائب الخليفة ، وقوى الطبيعة ، فإنما يذكر ذلك لينبهنا به إلى عظمة الكون ، وغرابة صنعه ، من حيث يسوقنا تصور ذلك إلى الإيمان بصانعه ، وكريم صفاته ، وصدق ما وعد وأوعده

وإذا رأيت في القرآن أمراً يخالف ظاهره ماتقرّر في العلم الطبيعي ، وثبت ذلك ثبوتاً قطعياً ، فلا تعجل بالرد والتكذيب ، ولكن ادّرع بالروية والتفكير : فقد يكون ماورد في القرآن واشتبه عليك أمره مراعى فيه عُرف المخاطبين ، وما اصطلاحوا عليه ، فإن هذه المراعاة الخطائية ، تساعد على التأثير واحتذاب النفوس إلى الاقتناع والإذعان . وهذه هي

بلاغه القرآن التي أفادت في تثيبت النبوة ، وبث الدعوة ، وسوق الناس إلى السعادتين الدنيوية والأخرية .

مثال هذه المراعاة أن القرآن وَصَفَ آكل الربا حينما يقوم من قبره يوم القيامة بأنه (كالذى يتخبطه الشيطان من المس) والمس الجنون . وعرب الجاهلية وكثيرون منّا اليوم يزعمون أن الجنى يدخل فى جسم الإنسان فينجس ويصبر يلتبسط ويختبط .

فالقرآن لم يقرر هذا الأمر ليكون علماً ثابتاً ، وإنما أراد أن يفهم المخاطبين أن قيام آكل الربا من قبره على حالة من الالتباط والاضطراب تشبه حالة ذاك الذى يزعمون أن جنياً لبسه وتخططه . فلو عدل عن هذا التعبير إلى التعبير المصرى وقال (كالذى تتخبطه نوبة عصبية) أترأه يؤثر فى نفوس المخاطبين التأثير المطلوب ، وهم لا يعرفون ماهى النوبة العصبية ولم يُرِدْ الله تعالى بَعْدُ أن يهيء نفوسهم لفهم دقائق طبيعية تحتاج إلى سبق مقدمات وطول ممارسة .

ومثل هذه الآية آية أخرى وصف بها تعالى ثمر شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم فقال - (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) : فقد كان العرب يزعمون أو يتخيلون أن للشياطين رؤوساً منكرة . والدّين إذا كان يعلم بالشياطين وبوجودهم ، لا يعلم أصلاً بأن لهم رؤوساً بشعة على هيئة ثمر اللّلع بحيث يصح أن يشبّه الثمر بها ، وإنما إثبات الرؤوس الهائلة لها شيء تتخيله العرب فصار من البلاغة أن يُشَبِّه الجسم الناقى المستطير البشع المنظر بتلك الرؤوس ، والقرآن أنزل بلاغة العرب وروى فيه أسلوبهم وبلاغتهم ، ولذلك شَبَّه ، طلع شجرة الزقوم بها ، اعتبر ذلك بما قاله الموقر

القيس في وصف سهامه المسنونة سنّاً مبالغاً فيه : إذ شبهها بأنياب الأغوال (وقال : أيقتلني والمشر في مضاجعي ... ومسنونة رزق كأنياب أغوال) فهل تحسب أن امرأ القيس يقول بوجود أغوال لها أنياب ؟ وإنما هو شيء اصطلاح فصحاء زمنه عليه في الوصف والتشبيه فذكره في شعره .

وهكذا الفلكي العصريّ يقول في حديثه : إنه كان في موضع كذا وقد رأى الشمس تغرب في البحر ، يقول هذا وهو يعتقد أن الشمس لا تغرب وإنما الأرض تتحرك وتدور وتحجب عنه قرص الشمس ، فلا يحسن أن تكذبه أو تقول إنه يقرر خلاف الحقيقة . وإنما الرجل يخاطب الناس بلسانهم وأسلوبهم الذي ألفوه . لا بلسان علومه الفلكية وأسلوب اصطلاحاته الفنية .

وقد يكون ماورد في القرآن بما أوهم خلاف المقرّر في العلم الطبيعي ليس من كلام الله ابتداءً ، وإنما هو من قول آخر قصّ الله علينا قصته ونسب إليه قوله ، فالخطأ من القائل لامنّه تعالى شأنه ، وعزّ سلطانه . مثال ذلك ما حكى القرآن عن السامريّ ، وأنه اتخذ من الحليّ عجلًا جسّدأ له خُوار ، وأن هذا الخُوار أوالحياة نشأت في العجل مذ ألقي فيه شيء من أثر حافر الرسول (وهو جبريل) ولكن كون هذه الحياة ناشئة عن أثر الحافر ليس بما قرره القرآن ، وإنما هو شيء زعمه السامريّ وأسند فيه الإخبار إلى نفسه ، قال : فَتَقَبَّضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ : السامريّ يقول إنه توصل إلى إحياء العجل بقبض القبضة ، فقصّ القرآن علينا قوله ولعله كاذب فيه ، ويكون سبب هذه الظاهرة الحيوية في جسد العجل حركة ميكانيكية مثلاً ، فلا يحسن إذن أن نتهم القرآن بأنه يهدم النواميس الثابتة

ويذهب إلى جواز تحول الجسم المعدني إلى جسم حي بمجرد إلقاء حفنة زاب في جوفه

(٥) ليس القرآن سفر تاريخ ولم تذكر أخبار الأولين فيه ليتلقّاها مخاطبون كما يتلقّون مسائل التاريخ : فلا يضرّه أن لا تكون هذه المسائل مسرودة فيه ومرتبّة على نحو ترتيبها في كتب التاريخ ، وإنما هو يذكر قصص الأولين كلما سنحت لها مناسبة : مقدمة ومؤخرة : موجزة ومبسّطة . كلّ ذلك للاعتبار بأسباب النعم والنقص ، والنظر في نتائج أعمال الأمم والاستعانة بهذه القصص ، على الترغيب والترهيب والإيقاظ والتنبيه فتتأثر النفس وتستجدي ، وتخضع لما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه منها

وهذا القدر من سرد القصص هو كلّ ما يتطلّبه البليغ في الاعتماد على بلاغته ، وطريق الوصول إلى غرضه ، فعدم تبويبها وتنسيقها في القرآن إن لم يوافق أساليب المؤرخين فهو موافق لأساليب البلغاء المتقنين على أن بلغاء كتّاب الإفرنج في عصورهم الأخيرة إذا أفرغوا مبادئ الأدب والأخلاق والتاريخ والاجتماع في قالب رواية ، قدّموا وأخروا في أجزاء موضوعها : بحيث تقرأ فاتحة الرواية فلا تفهم شيئاً ، ثمّ كلّما تسلسل الحديث بك ازدادت فهماً لها ، وتعقلاً لموضوعها ، وأغراض مؤلفها ، وكلهم يقولون إن هذا الأسلوب في وضع الرواية أبلغ في التأثير وأشد في الإيقاظ وتحريك النفس

(٦) أهم مسائل الفلسفة العصرية بل أشد الآراء العلمية العصرية تأثيراً في العقل البشري وقلب أوضاع الاجتماع الإنساني مسألتان : كيف نشأ هذا العالم ؟ وكيف تكون الإنسان ؟

ولم يأت القرآن الكريم بما يناهض الحقائق العلمية في هاتين المسألتين :

ففي خلق العالم أشار تعالى إلى أنه خلقه من مادة سديمية أو ضبابية سبأها دخاناً فقال جلّ شأنه (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) وأشار أيضاً إلى أن الأرض والسما (كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)

وأما في تكوين الإنسان فكل ما ذكره القرآن بشأنه، إنما هو تصوير الحالة الإنسانية في أول أمرها، وتمثيل لأطوارها، في بدء نشوئها، و(آدم) ليس نصاً في أن المراد به الشخص المعين فكما نعتقد أن (آدم) اسم النبي كريم هو أب البشر، كذلك يمكننا أن نقول: إن كلمة (آدم) تطلق على جماعة البشر أنفسهم الذين هم سلالة ذلك النبي الكريم والآب الرحيم . وقد بدأ استعمال العرب أسماء الأعلام هذا الاستعمال : فيطلقون كلمة (نعيم) و (مُضَر) مثلاً على القبيلتين الكبيرتين كما يطلقونها أحياناً على جدّيهما فمن لاحظ أسلوب التمثيل الذي ينتجيه البلغاء، ولاحظ استعمال اسم العلم في الجذوف في الذرية... فمن لاحظ الأمرين وقرأ آيات بدء خلق الإنسان في محكم القرآن - تجلّى له شيء من عجائب هذا الكتاب السماوي الذي يزيدك ثقةً بالله وإيقاناً، كلما زدتَه تأملاً وإمعاناً .

بقي أن نقول إن المفسّرين الذين وصلت إلينا كتبهم، إنما تكلموا على القرآن من حيث لغته أو بلاغته، وتطبيق آياته على مسائل العلوم العقلية والنقلية، أما الكلام عليه من حيث هو كتاب دعوة وإسعاد وهداية وإرشاد، فظني أنه لم يفسّر بعدُ وإلا لما سمعنا أمثال الموسيو (سالمون ريناش) يقول ما قال، ولما احتجنا إلى الدكتور (موريس) ينوب عنا في الجدال والنضال . روى يعقوب بن سفيان في تاريخه بإسناد صحيح عن أبي وائل قال : قرأ ابن عباس - رضي الله عنه - سورة النور ثم جعل يفسرها . فقال رجل لو سمعت الدبلم هذا لأسلمت .

بلى عارفوه ولكنكم معرضوه

كان حديث القوم بالأمس شجوناً : فكانوا يتنقلون بين المسائل . تنقل النحل بين الخنازل . وأول ما افتتح الكلام شابٌ نبيه من تلامذة المدارس . فقال : ينكرون علينا اليوم أن ننسب إلى الطبيعة عملاً ، فإذا وصفنا المروج في زمن الربيع مثلاً ، وقلنا (إن الطبيعة جَلَّتْهَا لنا عروساً ، بعد أن أفرغت عليها من الوشى لبوساً) قالوا : إن الله هو الذي فعل هذا الفعل وليس الطبيعة ، ويزعمون أن ذكر لفظه الطبيعة ، يشعر بالذهاب مذهب الدهريين في إنكار الخالق تعالى ، مع أن كتاب الإسلام المتقدمين كانوا ينسبون إلى الطبيعة ما يريدون نسبته إليها من دون حرج ، إذ هم يعلمون أن القائل لم يرد بالطبيعة إلا القوى التي أودعها البارئ تعالى هذه الكائنات ، وبشها في عناصرها ، وإذا راجعت ما قاله صاحب القاموس في مادة سعل ، وجدته يقول في تعريف السعال (إنه حركة تدفع الطبيعة بها الأذى عن الرئة وعن الأعضاء التي تتصل بها) ومن هنا انجر بالقوم الحديث إلى السعلاة واحدة السعال ، فقال بعضهم : إنها الغول وقال آخر : إنها ساحرة الجن ، وقال : ثالث إنها مخلوق غريب الشكل بين الإنس والجن : كان يزعم عرب الجاهلية أنه يسكن فيافي جزيرتهم ، وهو خرافة من خرافاتهم ، حتى زعموا أن عمرو بن ربوع أحد رجالهم تزوج واحدة من هؤلاء السعال فولدت له أولاداً . وقد قال بعض الشعراء يهجوهم :

(يا قُبْحَ الله بنى السـعـلـة عمر بن ربوع شرار النـات)
(ليسوا أعفَاء ولا أكيات)

والنات فى (النـات) و (أكيات) مقلوبة عن سين ، وأصلهما (الناس)
و (أكياس) وهى لغة بعض قبائل العرب .
وزعموا أيضا أن السـعـلـة المذكورة زوجة عمرو رأت البرق مرة يومض
من جهة بلادها فاستفز لها وقالت لزوجها :
(أمسك بـنـيـك عمرو إني آبق رقى على أرض السـعـلـة الى آلق)
ثم طارت إليهم لاردها الله .

وانتقلوا فى المناسبات إلى مذهب (دروين) فقال بعضهم : إن خلاصة
هذا المذهب : أن الكائنات الحية سواء أكانت حيوانات أو نباتات
وجدت أنواعها المختلفة ، وتولد بعضها من بعض بتأثير القوى والأسباب
الطبيعية ، وأن هذه القوى والأسباب لا تزال تفعل فى الأنواع إلى يومنا
هذا وإلى ما شاء الله . ويمكن للمرء أن يمتحن هذا التنوع والتولد بنفسه :
فيزوج بين أنواع الحيوانات المختلفة نكاحا ، والنباتات المتباينة لقاحا .
وانتقلوا إلى السياسة ومستقبل البلاد المغلوبة على أمرها ، فقال واحد
منهم : لا تلسوا ما قاله تورغو الشير : « إن المستعمرات كالأثمار متى نضجت
لا بد أن تسقط عن أمها فعلى زعماء البلاد أن يجتهدوا فى إنضاج بلادهم
بالعلم والمعرفة والتربية الصحيحة

ثم انتقلوا إلى موضوع آخر : فقال بعضهم : إن قياصرة روسيا كانوا
يُسَوِّجون أولادهم فى (كيف) وكانت هذه المدينة أعظم مدنها ، وهى
أقرب إلى شطوط البحر الأسود من مدينة موسكو ، ثم ضعف شأنها بعد

القرن الثاني عشر، لما أن خواقين التتر تسلطوا على أولئك القياصرة، وفرضوا عليهم الجزية، فصاروا من يومئذ يُتَوَجَّون في موسكو لبعدها عن بلاد التتر .

وقال آخر : إن أصل الحجاب الشرعى إنما هو للمرأة ذات الجمال الذى تُخشى منه الفتنة ، أما من لم تكن بهذه المشابة من النساء فلا حجاب عليها ، واستدل على ذلك بما فعله عمر رضى الله عنه : فإنه كان إذا رأى امرأة فى السوق منقبة كشف عن وجهها فإن رآها جميلة أمرها بملازمة النقاب وإلا أمرها بنزعه . قال ذلك الأديب : ثم إنه على تمادى الأيام صار النساء كل من يتحجب ويحرص على اتخاذ النقاب ، ليكون ذلك علامة على حسنهن وجمالهن إذ من منهن ترضى أن لا تكون لها تلك العلامة ؟ أو يقال عنها إنها ليست ذات حسن ووسامة ؟ فضحك الحاضرون وعجبوا من تلطفه فى استدلاله ، وذكر آخر (سميراميس) ملكة آشور ، وما كان من عنايتها بعمران عاصمتها (بابل) وما أنشأته فيها من القصور والبساتين ، إلى أن جرى ذكر ملكة مصر (كلوباطره) الشهيرة بجمالها فقال أحد القوم : إنه كان فى ملوك الدولة السادسة من الدول التى حكمت مصر ملكة تسمى (نيكتوريس) وكانت على جانب عظيم من الحسن والجمال والفضل والكمال ، وكان لها أخ قتله بعض رجال مملكتها ، فاحتالت عليهم ودعتهم إلى وليمة أقامتها لهم فى قصر على شاطئ النيل مبنى تحت الأرض ، فلما أخذوا فى الأكل أمرت بأن يفتح سد من النيل فانبتق ماؤه عليهم وأغرقهم

ومن هنا خاضوا فى التاريخ وحضارة الأمم القديمة ، وأطالوا فى ذلك ماشاءوا وكان بينهم شاب أزهرى ممن يعنون بتطبيق العلوم الدينية على الفنون

العصرية، فقال لهم: مالي أراكم تروون قصص التاريخ بصورة جافة، وتصفون أحوال الأمم وصفاً مادياً لا نصيب له في تصفية الروح وتطهير الأخلاق والتأثير في العواطف؟ ويسومني جداً أن أرى كتب التاريخ التي بين أيديكم تنحو هذا المنحى في تعليمكم وتهذيبكم، وإلا فليس الغرض من وضع التاريخ مجرد تنبيه الأذهان إلى الأسباب المادية من قيام الأمم وسقوطها. وإنما الغرض أيضاً تنبيهها إلى الأسباب الروحية والمؤثرات الأدبية.

قالوا ولكننا لا نعرف كتاباً في العالم يترجم أحوال الأمم ويصف نهوضها وسقوطها على نحو ما ذكرت. قال: إني أعرف سفرأ جليلاً فيه الكثير الطيب مما ذكرت.

ثم قال لهم: أرايتم لو ذكرت لكم خبر شَعْبٍ من الشعوب القديمة كان يقطن البلاد الواقعة بين مصر والشام في شمال طور سيناء التابع اليوم للحدودية المصرية، وقد عاش هذا الشعب في سنة ١٥٠٠ قبل المسيح أى في زمن الملك (منفطا) الثاني أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة وابن رعمسيس الثاني الذي يسميه اليونان (سيزوستريس)؟

هذا الشعب بلغ من الحضارة وسعة الحال (الرزق) واستكمال النعم مبلغاً عظيماً ثم دبَّ ديب الفساد إلى عقائده وأخلاقه وأعماله، فأفرط في عبادة الأصنام، وأخش في الجور والظلم والعيث في الأرض، ولم يزل هذا خبره، وذاك مخبره، حتى انتابته الغيرة، وحلَّت به العيرة، وأصبح كأمس الذي غيَّر، وكان - قبل نزول هذا البلاء به - قام لهدايته بعض أنبائه، فبذل جهده في تنبيهه وتحذيره فلم يُغْنِ ذلك شيئاً، قال هذا الابن الكريم لهم: دعوا الأصنام، ومَحْصُوا عقائدكم من الأوهام، وأَخْصُوا

العبادة لله فلا تشاركوا معه غيره ، هذا من جهة الاعتقاد . أما المعاملات بينكم فأحسنوها أيضا ، ولا تتلاعبوا في البيع والشراء ، فإنى أراكم إذا بعتم شيئا نَقَضْتُمْ منه واختزلتم بعض حق من يعاملكم بغيا وعدوانا .

إن هذا الزيف في الاعتقاد ، والبغى في المعاملة ، يؤديان إلى فساد حالكم واختلال أمركم . وذوال النعم عنكم

إنى أرى النعم متوفرة فيكم ، وألوية السعادة تحقق على ربوعكم فإذا لم ترعوا النعم وتحافظوا عليها بالتزام الحق والعدل توشك أن تزايلكم ويحل بكم بعدها البلاء والشقاء .

يا قوم أعطوا الذى الحق حقه كاملا وافيا ، فحرروا المكاييل والموازين ، ولا تدعوا فاسدى الذمة يتلاعبون بها كيفما يشاءون ، ولا تكثروا من وضع الضرائب والحراج ورسوم الظلم ، فإن هذا العمل يضعف الهمم عن الكسب والسعى ، إذ أن العامل يعلم أنه لا يكون له من وراء عمله فى آخر السنة إلا القليل التافه ، وأن الرؤساء وأرباب الجاه يشاركونه فى كسبه فيَنِي وتضعف همته ، فإذا غلَّتْ أيدى العمال عن العمل قلت موارد الرزق ، فتكثر الهجرة وتخرب البلاد .

هكذا كان يقول لهم هذا المرشد الصالح . ثم من جهة ثانية كان ينههم عن العيث فى الأرض والإفساد فيها ، فقد كانوا ينقطعون الطريق على السابلة ، ويغير بعضهم على بعض نهبا وسلبا ، فلم يكن الواحد منهم يأمن فى بيته ، أو يؤمل أن يعيش إلى غده ، أو أن مافى يده من الملك يبقى له ، أو يخلفه إلى ولده . هذا هو دأبهم ، وكان ذلك المرشد يحذّرهم أشد تحذير من عواقب هذه الحالة ، وينبّههم إلى أن العدل ، والتزام الحق ، يزيدهم سعادة ويضادف لهم النعم . فإنهم مهما بلغوا منها ، فهناك نعم أخرى يمكن اجتلابها ،

والحصول عليها بإحكام أمر المعاملة والتزام القسط ، وشمول العدل بين أبناء أمتهم ، وكان يقول لهم : إني أنا أو غيري لا يمكننا أن نحفظ عمرانكم من السقوط والاضمحلال مادام سوس الفساد والاختلال ينخر عظامه ، فاسمعوا وأطيعوا .

ولكن هل سَمِعُوا وأطاعوا ؟ كلا وإنما أجابوه جواب سخريّة واستهزاء : فقالوا يا فلان إنك تَسْمَعُنا نعمةً جديدةً لم نكن نعهدها منك من قبل ، وإنا نراك كثير الخشوع والصلاح والتقوى فهل خشوعك وإخبارك هذا هو الذي يُجَبِّرُوكَ علينا ، فتدعوننا إلى تغيير عقائدنا ، ونبدّ تقاليدنا التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ؟ وهل هو الذي يأمرُك أن تَتَدَخَّلَ في شؤوننا الاقتصادية ، ومعاملاتنا المالية ، فتختطّ لنا خططاً جديدة لا عهد لنا بها من قبل ؟

ولم يكتبفوا بهذا الردّ القبيح عليه . بل ازدادوا في التهمكّ به : إذ قالوا له : أنت العاقل الناصح المرشد ؟ يعنون أن العاقل لا يتدخّل فيما لا يعنيه من شؤون غيره ونقد عاداته وتقاليده .

على أن تهمهم هذا لم يثن عزمته ، بل إنه استجمع همته ، وصمّم على بلوغ الغاية في مجادلتهم ، فقال لهم : أخبروني يا قوم هل تحسبون أني أقول لكم ما أقول لمجرد الهوى ، أو أنه لا حجة لي ولا برهان على ما أدعوكم إليه من وجوب الاعتناء ؟ إني واثق من صدق قولي ، وثبوت حقي ، ثم فكبروا في أمر آخر : وهو أنه لا مصلحة لي من وراء نصحكم : فلا أطمع أن تعطوني مالا ، أو تهبوني عقارا ، فإن الله تعالى رزقني الرزق الحلال الطيب ، فما كان لي أن أطمح إلى مال السحت ، فأتوصل إليه بالتدخل في شؤونكم ، وأدّعاء إصلاح أمركم . حتى إذا ملأت رُدتّي بالصلات والاعطيات

سكت وانكفأت على عقبي كلا يا قوم لا تظنوا هذا في ولا تحسبوني أبغى المال وحطام الدنيا من وراء نصحكم وتحذيركم ، وإن بقيتم في ريب من أمرى فانظروا ، هل أنهاركم عن شيء ثم ارتكبته ؟ هل أحضركم على خير ثم أنجنته ؟ وإنما أنا أول من يدع ما أنهى عنه ، وأفعل ما أمر به ، وهذا دليل على صدق قولى . وإخلاصى فى عملى ، وأطلب من ربي المعونة لا منكم ، وإليه أرجع فى أمرى إليكم ، فأصغثوا إلى ، وأحسنوا الظن بى .

ثم أراد أن يشير الخوف فى نفوسهم بتذكيرهم ماجرى فى الأمم قبلهم . مذ تحجرت نفوسهم على العناد ومخالفة أوامر الله ، فحل بهم الشقاء والدمار ، وسلك فى التعبير عن ذلك مسلك الحكيم الواقف على أسرار النفوس ، ومناشئ الأخلاق ، فقال : ربما عددتمونى عدواً وخصماً لكم ، فتقيمون من هذه العداوة حاجزاً وسداً يحول بينكم وبين الإصغاء إلى نصيحى ، فيؤدى ذلك إلى نزول البلاء بكم ، كما نزل بالأمم التى كانت قبلكم ، بل إن هناك أمة على مقربة منكم فى ديارها ، ولم تنسوا بعد ما كان من هلاكها ودمارها .

كلا يا قوم أنا لست عدواً ، وإنما أنا من أبنائكم ، وأعز صديق لكم ، فاستغفروا الله من نية سوء تخالج قلوبكم ، وارجعوا إليه فى طلب التوفيق منه ، فهو - سبحانه - خالقكم فكيف لا يرحمكم ويحبكم ، والرحمة والحب مدعاة الغفران والتوفيق .

لم يدع هذا المرشد الغيور أسلوباً من أساليب النصيح إلا أفرغه فى نفوس هؤلاء القوم ، لكنه كان كأنه يصب نيتراً الفضة على معدن صلب قاس . فكان ذلك المعدن يغلى ويلتهب .

وكانوا يقولون له : إننا يا هذا لا نفهم كلامك ، ولا نريد أن نفعل

بنصائحك ، وإن وسكوتنا عنك إلى هذا الحد ليس خوفاً منك : فإنك ضعيف الجاذب ، حامل القدر ، منحطّ المقام ، ففي إمكاننا أن نبطش بك ، لكن لك عصبية من قومك وذوى قرابتك ، تحول بيننا وبين إيدائك : والفتك بك ، أفهمت الآن ؟ أنتَ لست بذى منزلة في قلوبنا ، ولسكنَّ رهطك وقومك هم الذين نخشى بأسهم ، ونحسب حسابهم .

فقال لهم صاحبهم متعجباً متأثراً : ماذا أصاب عقولكم يا قوم حتى تجيبوني بهذا الجواب ؟ أنا أقول لكم : إنى على حجة ويقين من دعوتى لكم ، وإناى أستمدّ المعونة والنصرة من الله ، ولا أطلب التوفيق إلاّ منه . فلا تتأثروا لكلامى ، ولا تخشعوا لتذكيرى ، ولا تخافوا الله الذى خلقكم ، وأمدكم بصنوف النعم وهو قادر على إهلاككم وسلب النعم منكم ، لكنكم تخافون ببطش قومى ، وتحذرون صواتهم ، ورفعتهم إلى مقام جعلهم الله دونه ، وسمّوهم بهم إلى منزلة أحلّهم خالقكم أخطّ منها .

لا جرم أنه ليس بعد هذا عناد ، وغلظ أكباد وإن الإله الذى تستخفون به إلى هذا القدر عالمٌ بكم ، وواقف على جميع شؤونكم ، أما وقد صرّحتم بما صرّحتم به من الجحود ، وتظاهرتم بما تظاهرتم به من الاستخفاف فما عدت أمل أن ترعوا عن ضلالكم ، أو تثوبوا إلى رشدكم ، فابقوا على ما أنتم عليه ، وابدلوا كل مافى وسعكم بالإيقاع بى ، وأنا كذلك أبقي على ما أنا عليه من الثقة بالله وبوعده ، فسيأتى يوم تعدون فيه : إن كنت أنا الكاذب المخادع أو أنتم المذكارين المغرورين .

وهكذا انتهى الحوار بين الرجل وقومه ، ثم تركهم لشأنهم بعد أن ينس منهم ، فتمادوا فى غيهم وضلالهم ، حتى نزلت بهم الجوائح ، التى من شأنها

أن تستأصل الأمم الباغية، فأهلكتهم، وأخلت منهم ديارهم، فكأنهم لم يقيموا فيها، ولم يقضوا عيشاً رغيداً في ربوعها، وناداهم هاتف من الملأ الأعلى: هذا جزاء من يعصى الله، ويدابر سنته الحكيمة، التي فطر السكون عليها، فإنه يهلك لا محالة كما هلك الأولون، وصائر إلى حيث يصيرون.

وما انتهى الحديث بالشاب الفاضل إلى هنا حتى شخصت إليه أبصار الحاضرين، وسألوه متعجبين من أين رويت هذه القصة التاريخية الغريبة في موضوعها، الجديدة في أسلوبها، فإننا لانعرف كتاباً يسرد أخبار التاريخ على هذا الأسلوب العجيب الذي ذكرته، فقال: بلى! إنكم بقصة شعيب ومدّين لمارفون، ولـكنكم عن القرآن ونصائحه معرضون!

الصيغة المختومة^(١)

قد تُصاب الأمم في بعض أدوار حياتها التاريخية بأمراض اجتماعية تُشرف معها على الفناء ، أو يتداركها الله برحمته ، فيزحزحها عن موقفها الخطر . ثم يبوؤها من الدين والعلم والأخلاق مكاناً عليّاً ، وهذا شأن العرب قبل الإسلام : وقت أن فشا الجهل فيهم ، وغلبت شياطين الفتنة عليهم ، حتى أنقذهم الله بالإسلام ، فانقشع عنهم الظلام ، وأصبحوا سادة الأنام .

فمن أعضل الأمراض الاجتماعية التي كانت مصابة بها الأمة العربية في عهد الجاهلية مَرَضُ (إنا وجدنا آباءنا) أعنى مرض التقايد لآبائهم في الشر والإثم والمنكر ، وكانوا كلما نصح لهم ناصح ، وأرشدهم إلى الحق مرشد بالدليل الواضح ، أجابوه بقولهم : بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فقال تعالى ناعياً عليهم ، مزيّفاً حجّتهم : (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟) أى : أو لو كان ذلك العمل الذي ورثتموه عن آباءكم منافياً للعقل بمعزل عن الهدى والحق :

كان القوم قبل الإسلام يأكلون الدواب الميته ، والجيف المذنة ، فهمام الإسلام عن ذلك ، مبيّناً لهم ضرره ، ووجوب العدول عنه ، إلى أكل الذبائح الزكية ، فكانوا يدافعون عن فعلتهم الممقوتة بما ذكرنا من تقليد آباءهم ، ثم يحتجون بدليل آخر عقلى غاية في الغرابة : وهو أن الذبيح

المزكى أماته البشر ، وأما الحيوان الميئت فقد أماته الله ، وشتان ما بينهما :
فإن الذى أماته الله ينبغى أن يكون أهناً وأمرأماً أماته البشر !!
وكان يعمد أحدهم إلى ابنته الصغيرة ، وقد أحاطت بها أمها وخالاتها
يودعنها ، ويكبن عليها ، فينتزعها من بين أيديهن بكل قسوة وغلظة ، ثم
يذهب بها إلى الصحراء ، فيحفر لها حفرة عميقة يدهورها فيها ، ثم يميل
عليها التراب ، فتموت المسكينه أبشع ميتة ، وإذا سئل عن هذه المؤودة
ماذا صنعت ؟ وبأى ذنب قتلت ؟ أجاب بدليل التقليد لآبائه ، وبأن فى
بنام هذه الابنة حياة تضييقاً لمعاشه ، أو أنها تسكون أحياناً سدياً للحوق
العار به .

وتلفت أيها القارىء من جهة ثانية إلى مراعيهم وحدائقهم ، فتجدها
ملأى بالأنعام السائمة ، والمواشى السارحة ، وهناك أكداس من الحبوب
والزروع والثمر والزبيب ، تقول ولمن هذه ؟ ولماذا لا تجعلون فيها نصيباً لبساتكم
بدل وأدهن أحياء ، وحرمانهم من العيش مع وحش الغلاة وطير السماء ؟ ؟
أجابوك بأن هذه الأنعام والزروع والثمار محرمة علينا ، نذراً لآلهتنا
وأصنامنا ، وليس لهم برهان على هذا التحريم ، وإضاعة المال ، وترك الانتفاع
به سوى قولهم بوجوب متابعة آبائهم ، والنسج على منوالهم
لا جرم أن العناية الإلهية ما كانت لتدع قوماً فى هذه الغفلة والضلالة
حتى ترشدهم إلى السداد ، وتهديهم سبيل الحق والرشاد .

وهذا ما كان من أمر بعثته صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب عليه ،
وفى ضمن ذلك الكتاب (صحيفة مختومة) خصص فيها الحوار مع أولئك
الجامدين على تقاليد آبائهم الموروثة ، وطرائقهم الممقوتة ، من مثل ما ذكرنا

من أكل الميتة ووأد البنات ، وتحريم أنعامهم ، ومحصولات أراضيهم ،
وتقديمها قرايين لأصنامهم ، مما لم يأذن به الله ، ولم يُنزل فيه سلطاناً .

تقول تلك الصحيفة لهم : بنسما حلتكم وحرمتكم على أنفسكم ، وشد
ما ذهلتكم عن الحق والاعتدال في مصالحكم ، وما تفتنكم به أمور دنياكم ، وإذا
أردتم الحلال والحرام الموصولين إلى سعادتكم وهنائكم ، وارتقاء عمرانكم ،
 واجتماعكم ، فتعالوا أتْلُ ما حرم عليكم ربكم :

(١) ألا تَشْرِكُوا به شيئاً : فإنكم إذا أشركتم مع الله آلهاً آخر توزعت
مهمتكم بين الآلهة ، واضمحلت تصميمكم وثباتكم ، فتنقطعون دون الوصول
إلى مقاصدكم ، وهذا كمن يبغى أمراً دنيوياً ، وقد اشتبهت وسائله عليه ،
وتعددت طرق نيله أمام عينيه ، فإنه لا يزال في حيرة وتردد من أمره
وسعيه ، حتى يقع على الخيبة والخذلان في آخر الأمر .

(٢) وبالوالدين إحساناً : فإن الإحسان إليهما عنوان الوفاء ، ومكارم
الأخلاق ، ومن أساء إليهما مع عظيم حقهما ، كان إلى غيرهما من الخلق
أشد إساءة ، وأكثر إجراماً ، وأين النجاح والفلاح في هذا العالم من
المسيئين والمجرمين ؟

(٣) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم : (من إملاق) أى
من خوف فقر ، فإذا كان رزق أولئك البنات المؤثقات على خالقهن
وهو سبحانه الكفيل به والميسر له ، فما معنى إجرامكم بقتلن وإقدامكم
على هذه الفعلة المنكرة ؟

(٤) ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن : أى دعوا الفسق والفجور
والزنا وشرب الخمر في السر ، كما تدعونه في العلن ، فإن الله لا يخفى عليه

أمر ، وهو سبحانه عليم بالسرائر ، كما هو مطلع على الظواهر .
(٥) . لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق : فإن قتل القاتل رادع لغيره
عن ارتكاب مثل فعله ، وهذا نافع مفيد في عمرانكم ، مصلح لشؤون
اجتماعكم . أما تقتيل بعضكم بعضاً بغير الحق ، فإنه والعياذ بالله من أكبر
الآثام المنسدة للنظام العام .

(٦) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن : أي إلا لأجل تسميره ،
وتدعيمه في ضروب التجارة ، ووجوه الربح ، أما تناوله والانتفاع به
تعدّياً من دون مقابل فإنه مفكك للروابط ، مشير للعداوات .

(٧) وأوفوا السكيل والميزان بالقسط : أي بالعدل ، ولا تكونوا كبعض
الباعة الذين يتخذون وزنتين : فيزنون تارة بهذه ، وطوراً بتلك ،
والمشترون عن خيانتهم غافلون .

(٨) وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى : هذه الوصية للحكّام ، أو لكل
إنسان ، فالواجب قول الحق والحكم بالعدل من دون تمييز بين الأشخاص ،
ومن دون محاباة للقريب على الغريب ، ولا بنحس حق العدو من أجل
جرّ النفع إلى الصديق الحبيب .

(٩) وبعهد الله أوفوا : يعنى إذا عاهد بعضكم بعضاً فليوف بعهده : فإن الوفاء
بالعهد من الإيمان ، وقد نسب هذا العهد إلى الله فقيل (عهد الله)
تفخيماً لشأنه ، وتعظيماً لحرمة .

(١٠) وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله : هذه الوصية الأخيرة بمثابة قولنا : أن ما ذكر من الوصايا
التسع المتقدمة واجبة الإجراء ، لازمة التنفيذ منذ يوم أنزلت عليكم

معشر البشر ، فاعملوا بها لوضوح أمرها ، وتحقيق فائدتها ، ولا تتبعوا
الطرق الأخرى المهلكة ، بداعي أنكم ورثتموها عن آبائكم ، فإن اتباعكم
لها يقودكم إلى التفرق والضلال ، والبعد عن سبيل الحق الذي هو
سبيل الله .

هذه هي (الصحيفة المختومة) وهذا ما تضمنته من الوصايا التي
يصح لنا أن نسميها (وصايا الإسلام العشر) وسمّاها سيدنا ابن
عباس حبر الأمة (الآيات المحكمات) أي البيّنات النابتات اللواتي
لا يعترهن تغيير ، ولا يمكن أن يطرأ عليهن تحويل أو تبديل
أما الربيع بن خيثم فإنه قال يوماً لصديق له : هل أدلك على صحيفة
عليها خاتم محمد ؟ قال نعم ، وفي رواية أن الربيع أشرف يوماً على أصحاب
له فقال لهم : هل أقرأ عليكم صحيفة من رسول الله ، لم يُفَلَّ خاتمها
(أي لم يفضض ولم يكسر عنها خاتمها) قالوا نعم ، قال : (تعالوا أتلى
ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً) إلى
آخر الوصايا العشر التي سردناها في هذا المقال وكأنه يعني بكون هذه
الصحيفة ما زال عليها الخاتم : أن وصاياها لا تزال غضة طرية ،
بحيث تصلح في كل زمان ومكان ، لترقية العمران ، وفائدة نوع الإنسان ،

قواعد العمران

« من بين آيات القرآن ،

إذا تجرد الإنسان هُنيئةً من جلباب التقاليد . وترك التصديق والإذعان جانباً . ونظر إلى القرآن ككتاب غامضٍ خبِرهُ ، مجهولٍ مصدره . وأراد أن يقرأ فيه . ثم يحكم عليه . يأخذ عبرةً منه . فماذا يرى ؟ وبماذا يحكم ؟ أخذ ذلك الإنسان المتجرد القرآن ، وما هو إلا أن وقع نظره على أوائل سورة الإسراء فرأى عجباً : رأى من ضروب الوعظ والتذكير ، وأفانين التربية والتعليم ، وأصول الآداب وقواعد الاجتماع ، مُفرداً ذلك كله في أساليبٍ عالية ، وحللٍ بالفصاحة والبلاغة زاهية – ما جعله يكبر الأمر ، ويتساءل ماذا عساه يكون السر ؟

كتابٌ وجد منذ أربعة عشر قرناً في بلدٍ منقطعٍ عن العمران ، محبوبٍ عن أشعة العلم والعرفان ، بين قومٍ أميين ، قساة جاهليين . ثم هو يتضمن ما أشرنا إليه لجديرٌ بالتعجب منه ، حقيقٌ بالتفكير فيه .

تضمنت أوائل سورة الإسراء ما تضمنت ، وهي ست صفحات فقط ، فإذا تضمنت إذن بقية صفحات ذلك الكتاب ، وهي زهاء (٨٧٠) صفحة نحن لا نحيل القارئ الكريم إلى أمرٍ بعيدٍ عن القياس ، ولا إلى غيبٍ لا يدخل تحت متناول الحواس ، وإنما نحيله إلى عيان ومشاهدة واختبار .

« الإسراء والمعراج »

(من مزايأ صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم)

يصح نعت القرآن بأنه أقدس رسالة . أتت من أقدس مقام ، بواسطة
أقدس إنسان ، وهو محمد بن عبد الله الرسول في تبليغ تلك الرسالة إلى الخلق .
وقد افتتح مرسل تلك الرسالة إحدى سورها أعنى سورة الإسراء
- ببيان منزلة ذلك الرسول ، ليزداد الناس ثقة به ، وحباً له ، وحرصاً على
تلقى الرسالة عنه ، فقال :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
الذى باركنا حوله لنريه من آياته »
إطلاع الله لذلك الرسول على آيات الكون وأسرار الخليفة ، هي المنزلة
الرفيعة التي امتاز بها عن سائر نبي البشر ، فالقصد من الآية إثبات تلك
المنزلة له

أما إن رحلة الرسول ، في الاطلاع على تلك الآيات كان بروحه
الشريفة أو جسده المبارك ؟ فهذا لا نكلف الإيمان القطعى به ، ما دامت
الآية ليست دلالاتها على معناها بقطعية ، ولذلك اختلف العلماء . بل الصحابة
في الإسراء والمعراج :

أسرى بروحه أو بجسده ؟ وكيف كانت كفيته ؟ وعلى أية حالة وقعت
غدوته وروحته ؟

هذا من عالم الغيب لا نكلف به تفصيلاً ، مادامنا مؤمنين بالغرض منه

إجمالاً : ألا وهو الإيمان بأن الله أطلع نبيه على عالم الملكوت ، ولنضرب لذلك مثلاً :

نسمع أن أهل طرابلس الغرب قاموا اليوم لمناجزة إيطاليا ، ونعلم أن حكومة الآستانة ذات الدهاء والقوة هي التي أمدتهم بالاضباط والسلاح والدخائر فتمكنوا بذلك من القيام في وجهها .

فيقول قوم : وكيف أوصلت حكومتنا تلك الإمدادات إليهم : بالبر عن طريق مصر ؟ أو بالبحر على ظهر السفن ، أو بالهواء على متون الطائرات ؟ ولكن هل من المعقول أن نوسع مسافة الخلف بيننا في هذه المسألة ، ونكثر من اللغط فيها ؟ وليس في ذلك من فائدة لنا ، وإنما الفائدة هي في أن نثق بحكومتنا وفي أن لديها من الوسائط ما يكفل إيصال القوات إلى إخواننا السنوسيين بطريقة حكيمة مأمونة .

يستبعد قوم أن يكون الإسراء حصل بجسده الشريف ، ولكني أقول إنه ربما كان هو الواقع ، كما يستبعد قوم أن يكون إمداد السنوسيين بطريق البحر مع أنه ربما كان هو الواقع أيضاً ، بل ربما كان بواسطة الغواصات ، التي تنساب تحت مياه البحار الطاميات .

كيف أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ؟ وكيف يُتصور هذا ؟

ولكن قل لي — ولنفرض أنفسنا عائشين منذ مئات من السنين — كيف يمكن أن يطير الإنسان مسافة أيام بساعة من الزمن ؟ لو قلنا ذلك لأهل القرون الأولى أما كانوا يستبعدونه ، ويعدونه من المحالات العقلية ؟ وكذلك إسراء النبي إذا استبعده العقل وعجز عن تصويره ، ينبغي له أن

لا يُنكره ولا يُحِيل وقوعه مادام عند خالق هذا السكون من النواميس الخفية
مالا تحيط به العقول .

« الاعتبار بالأمم الغابرة ،

عرفنا سزلة « الرسول » حامل الرسالة ، ولنقرأ الآن الرسالة نفسها أو
بعض آيات منها أعنى أوائل (سورة الإسراء)

أول ما فعلته هذه الآيات أنها حوّلت نظرنا إلى أمة تقدمتنا . كان لها
في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية شأن عظيم ، وقد ذاق حلو الزمان
ومرّة بحيث أصبحت أجدر الأمم القديمة بأن يُتَعَطَّ بها ، ويُتبرأ حوالها ،
ألا وهي الأمة اليهودية :

« وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل : ألا تتخذوا
من دوني وكيلاً ، ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً ، وقضينا
إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدن في الأرض مرتين ، ولتعلن علواً
كبيراً ، فإذا جاء وعد أوليها بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديداً ، فحاسوا
خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم
بأموال وبنيين ، وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن
أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما
دخلوه أول مرة وليستبروا ما علوا تنبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن
عدتم عدنا ،

قصّت علينا هذه الآيات من خبر اليهود ما فيه مزدجر ، وتحذير لنا أن
يصيبنا مثلما أصابهم ، فقالت : إن الله أعطاهم التوراة فيها هدى ، وحذّرهم

مخالفة أوامره ، واستدبار سنته ، وأثبت لهم أن هذه المخالفة تؤدي إلى غلبة
عدوهم عليهم ، واكتساحه بلادهم ، فاليهود غفلوا عن سنن السكون ، وتناسوا
أمر الله . فسلب عليهم بختنصر ، نبوخذ نصر ، ملك الآشوريين ، فأنزل بهم
البلاد ، ثم كشف ذلك عنهم على أمل أن يكونوا تابوا وأنابوا ، فيعودوا
للعمل بالتوراة ، ومراعاة سنن الوجود والانعاز ، بما كان من إدلال
عدوهم في المرة الأولى لهم . فلم يفعلوا شيئاً من ذلك وعادوا لما نهوا عنه ،
فجاءهم الرومانيون ، وأوقعوا بهم ، واضطهدوهم ، وأذلّوهم ، كما قال لهم ربهم
: وإن عدتم عدنا ، أي وإن عدتم للمخالفة عدنا لتسليط عدوكم عليكم .

هذا ما كان من أمر اليهود في سابق عهدهم : فوعظنا الله نحن المسلمين بهم ،
وحذّرنا أن نخالف أوامره الإلهية ، وندابّر سنته السكونية ، فيُصيبنا مثلاً
أصابهم

ولا ريب أن القدوة عامل من أقوى عوامل التربية ، وهي في تربية
الأمم مثلها في تربية الأفراد ، فإن أحسن طريقة يتخذها المرء في تربية
الناشئ هي أن يصف له أعمال رجال الفضيلة فيقتدى بهم ، وأعمال رجال
الرذيلة فيتجنب عملهم ، وهكذا الأمم في ضرر تكوّناتها : يجب أن تستفيد
من أمم التاريخ فتقتدى بهذه ، وتحيد عن عمل تلك .

سلك القرآن الكريم في تربيتنا - معشر المسلمين - هذا الطريق من التربية :
فترونه يقصّ علينا أخبار الأمم السالفة ، وما جرى لها للاستفيد من ذلك
عظة وعبرة .

اليهود في عهد البعثة المحمدية كانوا مضرراً للأمثال ، وموضعاً للشفقة
عليهم ، والتموّد إلى الله من المصير إلى مثل حالهم ، ولسكنهم اليوم عادوا

فلمّا شاعَهم، ورأبوا صدّهم، وأخذوا يستفيدون من تجارب الأمم غيرهم.

ومن عبّر التاريخ إلى تسنتج من حوادث من تقدّمهم .

انظروا إليهم تجدوهم في حالة غير حالهم الأولى .

لماذا انقلب حالهم وغير الله ما بهم ؟

ذلك لأنهم غيّروا ما بأنفسهم .

سلّكوا إلى الفوز في هذه الحياة من طريقه الطبيعي الذي طالما تنكّبوه

في سالف عهدهم .

سلّكوا سبيل الحياة الاجتماعية وهم مسلّحون بثلاثة أمور :

(١) تقوية روح التضامن بينهم

(٢) إصلاح التربية من طريق العائلة والمدرسة

(٣) توفير الثروة من طريق علم الاقتصاد

هذه القوى الثلاث هي عماد الأمم ، وأكبر العوامل في نهوضها . فيجب

علينا — معشر المسلمين — اليوم أن نوفر فينا هذه العوامل الثلاثة ، لأن

الحكمة ضالتنا كما قال نبيّنا : وإلا كان أمرنا إلى خسار ، وسعيّنا إلى تبار .

وهذا مصداق الآية الكريمة : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم ،

غير أن القرآن الذي أعطانا نحن المسلمين هذا الأصل في نهوض الأمم

وسقوطها — وهو أن التغير الاجتماعي ناشئ عن التغير الأخلاقي —

أعطانا أصلاً آخر في هذا المعنى وهو ترك اليأس ، مذ قال : إنه لا يئس

من روح الله إلا القوم الكافرون ،

هذه أسباب النهوض منبهة حوالينا ، وطرق العزة والغلبة ممهدة أمامنا .
فلنسلك هذه الطريق بصبر وثبات ورجاء كما أمر الله ، فلا جرم أن نكون
بعد ذلك من الفائزين .

(التربية النفسية)

بعد أن فهمنا من آيات اليهود لزوم الاتعاظ بما جرى للأمم قبلنا ،
نرجع إلى بقية الآيات الأوائل من سورة الإسراء فنجد فيها مواعظ وحكماء
وآداباً اجتماعية أخرى .
من ذلك التربية النفسية :

(الأصل الأول) في هذه التربية أن يعتقد المرء بأن كل ما يصدر عنه —
من قول أو عمل أو فكر — له تأثير في أخلاقه وسعادته ومستقبل حياته :
إن حسناً فحياته سعيدة ، وإن سيئاً فحياته شقيّة . وإذا علم المرء هذا كان
جديراً أن لا يقول إلا حسناً . ولا يعمل إلا حسناً ولا يفكر إلا حسناً :
قال تعالى في آيات سورة الإسراء : إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن
أسأتم فلها ،

— ثم قال — : من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل
عليها ،

(والأصل الثاني) في التربية النفسية : حياة الضمير وصحة الوجدان في
نفس المرء : فمن كان ذا ضمير حي ، ووجدان صحيح ، كان على نصيب وافر

من صحة الحُكم والقصد في الأعمال . وسعادة الحياة . وهذا منزى قوله تعالى
في آيات سورة الإسراء : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم
القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
حسباً ، طائر الإنسان عمله الذي صدر عنه فهو منوط به مقصور عليه - كما
مر في آية إن أحسنتم . . وآية ومن اهتدى . . - فأعمالك التي تصدر عنك
أيها الإنسان ، يكنى في تمحيصها ومعرفة صوابها من خطئها ، أن ترجع إلى
نفسك « أى ضميرك أو وجدانك كما يقولون اليوم ، ثم تقرأ ما انطوى فيها
من الهواجس والخواطر والأمال والاعتقادات فإذا قرأت ذلك كله فهمت
كيف صدرت عنك الأعمال حسنة أو قبيحة ، وكيف أصبحت بسببها
سعيداً أو شقيماً .

نفسك وحدها ، هي نعم الحُكم فيما إذا عُرِضت الأعمال ، ونُصب
الميزان للفصل بين الحق والضلال .

فالواجب علينا في تربيته النفسية إذن أن نقوّى أو نصلح فينا الضمير
والوجدان الذي يسمّيه القرآن « النفس » ، أو « النفس اللوامة » ، نصلح فينا
ذلك لنعرف كيف نقول الصدق ، ونحكم بالحق .

(والأصل الثالث) في التربية النفسية « الصبر والثبات والتجملد ، وهو
ما يسمونه اليوم « قوة الإرادة والشجاعة الأدبية » ، وقد نهانا الله في آيات
الإسراء المذكورة عن اليأس والقنوط فقال : « ويدعو الإنسان بالشردما »
بالخير وكان الإنسان عجولاً ، أى يا عجبا للإنسان ، كيف يعجل بالسخط
على نفسه والبراءة منها وتمنى الشر لها إذا لم تفز (أى النفس) في بعض

المواطن ، أو لم تنجح عند ممارسة عمل من الأعمال . كلا ، لا ينبغي أن يستخط ولا أن يدعو على نفسه بالشر والهلاك ، كأنه يدعو لها بالخير . بل عليه أن يصبر ويتجلد ، ويقوّى إرادته ، فيعيد الكرة على العمل الذي لم ينجح فيه ، فيتم له الفوز والغلبة .

فبالله قولوا إذا لم يكن هذا معنى الآية فما هو معناها ؟ وإذا لم تكن قوة الإرادة والصبر أساس السعادة في هذه الحياة فما هو أساسها ؟

(الأصل الرابع) في التربية النفسية : كبر النفس وعلو الهمة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « علو الهمة من الإيمان ، فلا يرضى المؤمن لنفسه بالدون من شؤون هذه الحياة ، بل يقتحم المصاعب في نيل المناصب ، ويكابد العظائم ، في اكتساب المغنم .

وأيّ مناصب ومغنم ؟ هي أن تكون أمتة سعيدة ، فيكون سعيداً بها ومعها . هي الفضائل والكمالات والأخلاق العالية والمظاهر السامية ، فيكون المرء بها رجلاً عظيماً ، وعبقرياً كريماً .

إذا كثرت أمثال هؤلاء العظماء في أمة من الأمم ارتقت وعزت ، وإن قلّوا أو فقدوا تدهورت وذلت ، والله سبحانه وتعالى ، يُعطي المرء من هذه المظاهر العالية على حسب سعيه ، وما طلبه بلسان حاله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقد أمره أن يسعى في نيل الكمال الإنساني بأبغ أسلوب في آيات (سورة الإسراء) فقال تعالى :

« من كان يريد العاجلة - الخُطّة التي يسهل تناولها والمنزلة الناقصة - عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحوراً : »

- أى تكون عاقبة ما أراد التعجيل به إلى خُطة الدون ، ثم البلاء والشقاء الأبدى - ومن أراد الآخرة - وهى الحياة الكاملة والسعادة الشاملة - وسعى لها سعيها وهو مؤمن - واثق بالظفر - فأولئك كان سعيهم مشكورا .

(الأصل الخامس) من أصول التربية النفسية التى عايننا إياها الله فى آيات سورة الإسراء : وإعمال العقل فى ما يعرض عليه من المسائل العلمية والكونية ، فلا يجوز للمرء تعطيل عقله ومشاعره وتصديق كل وهم يلقى عليه فقال تعالى فى آيات سورة الإسراء : - ويا ما أسمى حكمته فيما قال - ولا تقف ما ليس لك به علم : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، أى لا تتبع الظن فتصدق ما لا يلتحم مع العلم اليقيني بل استعمل عقلك وسمعك وبصرك : فإذا أهملتها وعطلت العمل بها سئلت عنها كلها يوم القيامة . فإذا قال لك ربك يومئذ : لماذا اعتقدت كذا ؟ أو كنت تذهب من المذاهب والآراء إلى كذا ؟ فقلت له : يارب قيل لى كذا ، وقالوا لى كذا فتابعهم . فيقول لك : وأين عقلك وسمعك وبصرك التى قد وهبها لك ؟ ولماذا لم تستعملها وتستهد بها ؟ هل أعطيتك إياها لتهملها ؟ أهكذا حق النعمة وشكرها ؟

لا جرم أن تقوم إذ ذاك الحجة على هذا المقلد ، فيقذف به فى هوة الشقاء . أنقذنا الله منها بفضلہ وكرمه .

التربية العائلية

الإمة تتألف من العائلات ، كما أن الجدار يتألف من الأحجار . فإذا

كانت الأحجار متينة قوية محكمة الوضع ، كان الجدار ثابتاً حسن الوضع ،
والعكس بالعكس . كذلك الأمة إذا تألفت من عائلات راقية في نظامها
وترتيبها ونظافتها وآدابها وأخلاق أفرادها كانت الأمة في أعلى درجات الرقي ،
والعكس بالعكس .

والعائلة تتألف في أول أطوار تسكوّنها من أب ، وأم ، وابن .
والابن الأول هو حجر الزاوية في أساس البيت : فإذا كانت أخلاقه
حسنة ، وآدابه راقية ، وباراً بوالديه تبعه إخوته وأخواته وانتظم حال
العائلة . وإلا فسدت الحالة ، واختل النظام .

على أن الابن إذا كان عاقلاً لوالديه : يسى عشرتهما ، ويوصل الأذى
إليهما ، كان جديراً أن يفعل ذلك مع خُلفائه ومعاشره الآخرين ، وهذا
كاف في سقوطه وتعاسته . قال تعالى في آيات سورة الإسراء : " وقضى
ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما
أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما
جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ، ومعنى هذه
الآيات ظاهر لا يحتاج إلى تبيان .

ومن التربية العائلية التي جاءت في آيات الإسراء : رحمة الوالدين
وعطفهما على ابنهما ، فلا يقسوان عليه ، ولا ينظران إليه كأنه متاع لا قيمة
له في الوجود . وإنما هو حرّ مستقل في نفسه ، يكاف أبوه الإنفاق عليه
وتربيته حتى يبلغ أشده ثم يسرّحه في هذا العالم ليسمى لنفسه ولعائلته
ولوطنه .

وقد نعى الله على الآباء القساسة صنيعهم فقال فى آيات الإسراء :
« ولا تقتلوا أولادكم خشية إِملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطئاً
كبيراً .. »

فهذه القسوة أو اليأس من حصول الغنى هو من أسباب خراب العائلات
وتنقيص عيشها

ونحن اليوم لا نقتل أولادنا قتلاً حقيقياً ، وإنما نقتلهم قتلاً معنوياً :
نهمل الإنفاق على تربيته وتعليمه فيكونوا على حالة من الجهل والشقاء
الموت الحقيقى خيرٌ منها .

فقرية الأولاد ، والرافة بهم ، وعدم قتلهم قتلاً حقيقياً أو معنوياً هو
مما أمرنا الله به وحضنا عليه فى آيات الإسراء .

ومن التربية العائلية ، استحكام ملكة الاقتصاد فى نفوس أفرادها ،
الآيتان السابقتان : آية برِّ الوالدين ، وآية عدم قتل الأولاد ، تحضّاننا على
استكمال الروح الأدبى فى العائلة ، أما آيات الاقتصاد التى تضمنتها آيات
الإسراء فهى تحضّنا على استكمال الروح المادى ، أى على توفير الثروة ،
والاهتمام إلى أحسن الطرق فى استثمارها وتحصيلها ، والعائلة التى لا تعرف
كيف تستثمر ثروتها . أو تزيد فيها ، أو لا تعرف كيف تنفق هذا المال فى
مسبّله المشروعة وطرقه القانونية ، وتقابل الصرف بالخرج على أصول
« البودجة » ، يوشك أن تنفق أموالها وتضيعها بالتدريج ، أو تخزنها فى
« البنوك » دون أن تستفيد منها ، ويكون شأنها شأن من أعطاه الله عينين ليبصر
بهما ، فهو قد أغمضهما أو وضع عليهما عصابة فلم يعد يرى ولا يبصر .

فمثل هذا الرجل كيف يمكنه أن يعيش ؟ وذلك البخيل الذي يقتتر على نفسه وعياله والمحتاجين المتصلين به كيف تطيب له الحياة ؟ قال تعالى في آيات الإسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

، الحياة الاجتماعية ،

آيات سورة الإسراء على قلتها حافلة بالقواعد العمرانية ، والأصول المدنية ، التي يتوقف عليها هناء الجماعات البشرية .

فالبشر ماداموا مدنيّين بالطبع ، وما داموا في حاجة إلى أن يعيشوا عيشة اجتماعية : كانوا محتاجين إلى هذه الأحكام والأصول التي جاءت في آيات الإسراء ، وهما نحن نسرّد تلك الآيات سرّداً من دون شرح ولا تعليق ، خوف التطويل والتضييق .

(١) « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ،

وهذا خطاب للأغنياء والمظالم في الأمم

(٢) « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ،

وهذا خطاب للحكام والزعماء فيأخذون كل مذنب بذنبه

(٣) « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » . ثم في آية بعدها .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » ،

خطاب لكل فرد من أفراد الأمة ، وتنبيه حكام الشرع لحمل الناس على

إيفاء الحقوق

(٤) « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً ،

خطاب لكل فرد من أفراد الأمة فلا يتلوّثوا بهذه الفاحشة ، ويصح أن نعد هذه الآية من آيات « التربية العائلية » ، لأن الزنا يهدم بناءها

(٥) « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ،

خطاب لكل فرد من الأمة بأن يكونوا ودعاء متواضعين : فيتحابوا فيكونوا أقوياء وإلتخاذلوا وضعفوا ، وتصلح هذه الآية مثالا ، للتربية النفسية ، لأن التواضع وعدم الغرور أساس تلك التربية

(٦) « ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ،

خطاب لكل فرد أو للحكام في حفظ الدماء ، والحكم بالحق وترك الشطط والاسراف

(٧) « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ،

خطاب لكل فرد أو للحكام مع الدول الأخرى ، فيكون من قبيل التربية السياسية . وتصلح هذه الآية أن تندمج في آيات التربية النفسية ،

(٨) « وأوفوا السكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ،

خطاب عام وتنبية للحكام

هذه الآيات كلها بما جاء في أول سورة الإسراء ، ولم تستغرق ست الصفحات ، وهي كما يرى القارىء اللبيب جماعُ الأصول العمرانية ، وكفافُ القواعد الاجتماعية ، ويتخللها آيات في مقاصد أخرى كآية « وجعلنا الليل

والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ،

وهذه الآية تصلح شاهداً للتربية الاقتصادية لأن فيها حثاً على السعى والكسب، والاحتفاظ بالوقت فنحصى أجزائه ، ولاندع جزءاً منه يفلت منا سُدى ، أو يضيع علينا بكدًا .

هذه نماذج من آيات أوائل (سورة الإسراء) ، كما أن هذه الآيات نفسها نموذج من مجموع ما في القرآن الكريم من الحكم والعبر ، والمبتدأ والخبر ، فرسالة هذا شأنها ، والله مرسلها ، ومحمد رسولها وواسطتها : هان يليق بنا أن نتخاقل عند تلاوتها ، أو ندع العمل بمضمون آياتها ؟

وهو الذى ينزل الغيث^(١)

قرآن كريم - سورة الشورى

مهما ارتقى البشر - واتسعت دائرة معارفهم ، ووقفوا على كنه الأسباب والمسببات، وزعموا أنه لم يعزب عنهم شيء من نوااميس الأرض والسموات - بقى هناك شئون وأسرار كونية فى دائرة لا يمكن أن تطول إليها يد علومهم ، أو يحوم حولها طائر اختراعهم .

فالدائرة الأولى هى دائرة الأسباب والمسببات ، وهى بما أذن الله للعقل البشرى أن يتجول فيه ماشاء ، وتسمى أيضا (مرتبة التركيب والصنع) . وهناك مرتبة وراءها تدعى (مرتبة الخلق والملك) وهى ما استأثر الله به ، وخص بها ذاته الصمدانية ، فله سبحانه الخلق والملك ، وللعبد التركيب والصنع ، وقد أشار تعالى إلى المرتبة الأولى التى هى مرتبة الأسباب والمسببات ، والتى هى مدار التكليف بقوله تعالى (وامشُوا فى مناكبها) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (وقل اعملوا) كما أشار إلى المرتبة الثانية وهى مرتبة تصرف القدرة الأزلية بقوله تعالى (هل من خالق غير الله ؟) (ذلكم الله ربكم له الملك) (تبارك الذى بيده الملك) (ولم يكن له شريك فى الملك) . وأظهر الآيات فى الكشف عن هذه المرتبة آية (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) ، وذكر الشيخ الأكبر فى

الفتوحات : أن الله تعالى نزّه ذاته عن أن يكون له شريك في (مرتبة الملك) مذ قال تعالى (ولم يكن له شريك في الملك) ولم يقل (في الصنع والتركيب) للإشارة إلى أن البشر قد يكون منهم صنع وتركيب .

ففي الناس من إذا نزلت بهم شدة ، أو أصابتهم مصيبة - وكانت تلك المصيبة أثراً من آثار (مرتبة الملك) والقهر الألهي بحيث لا تطول إليها يد الأسباب كانهجاس المطر مثلاً - غفلوا عن الالتجاء إلى الله تعالى ودعائه بأن يكشف عنهم الضرّ ، ويرفع البلاء .

فيا علماء الفن وأساتذة الطبيعة: لا ننكر أنكم حلّلتُم المادة وأجزاءها ، وعرفتم طبائعها وأحوالها ، واكتشفتم الحركة وعجائبها ، والقوة وغرائبها ، واهتديتم إلى استخدام الكهرباء والبخار ، وانتفعتُم بما هناك من نواميس وأسرار ، ولم يفتكم تعليل نشوء السحاب ، وتكوّن الضباب ، وثوران العواصف والأنواء ، وانسكاب الغيث من عنان السماء ، إلى غير ذلك من آثار الظواهر الجوية ، ومفاعيل القوى الطبيعية . فهل عسيتم إذا عرفتم كل هذا ، ووقفتم على علله وأسبابه : أن توجدوا شيئاً منه من العدم والمُهلك ، وتعدّوا دائرة التركيب إلى دائرة الخلق والمُلك ؟ ؟

نحن لا ننكر فضل العلوم العصرية ، ولا فائدة الفنون الطبيعية والكميائية ، ولا تأثيرها في تقدم البشر . وارتقاء نوع الإنسان ، ولكننا ننكر أشدّ الإنكار : أن يُحجب البشر بهذه العلوم والفنون عن المؤثر الحقيقي : وهو الله تعالى ، فيقفوا مكابرين دون الرجوع إليه ، والاتكال حين نزول الشدائد عليه .

اهتدي البشر إلى معرفة العناصر التي يتركب منها الماء ، وكيف يتحوّل

الماء إلى بخار ، وكيف يعلو هذا البخار في طبقات الجو ، حتى إذا ضربه قوس البرد تكاثف ببلورات مائية غاية في الصغر هي السحاب ، ثم تسوق الريح ذلك السحاب إلى هنا وهناك وهناك ، ثم تمثريه (أى الريح) وتعتصره فيسكب مطراً تحي به الأرض بعد موتها — يعرف الإنسان كل هذا ، واسكن قل له : يستنزل لنا المطر بهذا العلم الذى علمه ، والسرى الذى اكتشفه ١١

ذكرت الصحف منذ بضع عشرة سنة : أن العلماء اكتشفوا طريقة لإحداث سحاب سماوى ينهمر منه الماء على الأرض وذلك بإطلاق مدافع كثيرة في الجو فتسخن الهواء ، وتجمع البخار الذى فيه بشكل سحاب ثم يكون مطراً ، وقد زعموا أنهم انتهوا إلى ذلك على أثر معركة حربية ، أطلقت فيها مدافع كثيرة ، فكان من تأثير إطلاقها ، وانتشار حرارة دخانها وبخارها ما ذكرنا ، نقول لهم : ولكن لماذا لم يصح ذلك الحلم ؟ وما قد انحبس المطر عنا كل هذه الأيام (أيام الحرب الأولى) وهذه المدافع والقنابر تكاثرت ، وأبحرة دخانها تكاثفت ، فى هاتين السلتين إلى ما لا نهاية له ، فلم يحصل من وراء ذلك سحاب فيه ماء ، وإنما كل ما فيه هلاك وفناء

ليست المدافع ودخانها هي التي تبشر الرياح وترسل المطر ، ولكن الله (هو الذى يرسل الرياح بئسرى بين يدي رحمته حتى إذا أقلست سحاباً ثقلاً سقته لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات)

والرحمة هنا المطر تسبقه الرياح الباردة تبشر به ، حتى إذا حملت تلك الرياح السحاب المثقلة بماء المطر ، أراد الله منه أن يسير إلى أرض لا ماء فيها فيسقيها ، ويخرج كلاًها ، فتم إرادة الله .

(ألم تر أن الله يُزجي سحاباً ثم يُؤلّف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، ويُنزل من السماء من جبالٍ فيها من بردٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ؟) الله يُزجي السحاب أى يسوقه بواسطة الرياح حتى إذا تجمّع وتكاثف تقاطر الودق وهو المطر من بين أجزائه ، وهو تعالى كما يقدر على هذا يقدر أيضاً على جعل ذلك السحاب — الذى يشبه فى عظّمه وتكاثفه الجبال — يُمطر برّداً مكان المطر ، ثم يرسل ذلك إلى الأرض التى يريد ، ويحبسه عن الأرض التى يريد .

(أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ؟) أولم يكف فى الدلالة على قدرتنا أننا نسوق السحاب مثقلاً بالماء إلى أرضٍ جزر - وهى اليابسة لانبات فيها - فنخرج به نباتاً نحى به الأنعام والناس ؟

(إله الأنعام ورب الغمام) م لنا الفقر دونك والملك لك) هذا ولا نريد أن نتبع جميع ماورد فى القرآن من وصف هذه الظاهرة السماوية : ظاهرة تكون السحب وحملها الأمطار إلى البلاد ، فتحي بها الدواب والعباد ، وإنما نريد الإشارة إلى أن هذه الظاهرة العجيبة بما استأثر الله به : وهى من مظاهر (مرتبة الخلق والملك) التى تقصر عن التطاول إليها يد البشر وحيلهم وأسبابهم ، وكل ما كان كذلك من أمور الدنيا ، فلا ينفع فيه إلا الدعاء والاتجاء إلى الله بالتوبة والاستغفار

هذا المواطن هو من المواطن التى قال الله فى مثلها (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة: أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء)

وكما أن مواطن الشدة مختلفة: فمنها ما يسعى الإنسان لكشفه بنفسه وسعيه، ومنها ما يعتمد في كشفه على الله فيدعوه : يتوب إليه ، كذلك الموجودات التي يتعلّق بها الإيجاد في هذا الـكون : فإن منها ما يقدر البشر على إيجاده بالوسائل والأسباب التي مكّنتهم الله منها : وهي (مرتبة العمل والصنع والتركيب) وقد مرت الإشارة إليها آنفاً ، ومنها ما لا يقدر على إيجاده إلا الله تعالى وهي (مرتبة الملك والخلق والإبداع) وقد يقع التشابه بين المرتبتين أحياناً ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (قل : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فنشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار)

(أقول مستدركاً) كتبت هذا المقال سنة ١٩١٦ م ثم بعد اثنتين وثلاثين سنة أى في سنة ١٩٤٨ م ركبت لأول مرة الطائرة بين دمشق والقاهرة ذهاباً وإياباً ، فعجبت - يعلم الله - من غريب أمرها ، ودقّة تركيبها ، ومبلغ خدمتها للإنسان ، وللعمران العالمي .

وكنْتُ كلُّما تَحَلَّلْتُ الطائرة السحابَ بنا ، جَرَى على لساني قول الشاعر العربي :

(فلو رفع السماء إليه قوماً لكننا في السماء مع السحاب)
يريد الشاعر أن هذا الرفع إلى السماء لا يكون ، لكنه كان ، ورأيناه بالعيان . وتحوّلت في جنبات الطائرة ، وهي محلّقة في عنان السماء ، وتفقدت أقسامها ، وتأملت تكاوينها ، ووقفتُ - بعد الاستئذان - على رأس قائدها الأميركي ومساعدته الذي بجانبه ، وتفهرست في ما بين

أيديهما من الأدوات الفنية والآلات العبقريّة ، ولم يكن الوقت مساعدًا على أن أفهم شيئًا مما هما بصددّه . على - أننى والحق يقال - لو أفهماني لما فهمت . ثم صُرفتُ عن محاوله الفهم إلى التعجب من أمر الطائرة ، وانتقلت من التعجب منها إلى التعجب من دماغ مخترعها : ذلك الدماغ الذى باسَّغ من الضعف والحشاشة وفرط الليونة حدًّا بحيث لو نخس برأس إبرقٍ لشلَّ وتعطَّلت حركته بل لمات صاحبه .

هذا العضو البالغ فى ضعفه ، وعدم مقاومته هذا الحد ، هو الذى أو - د الطيارة البالغة فى قوتها وعظمتها وجبروتها هذا القدر .

وهنا ننتقل إلى الحقيقة الأبدية السرمديّة ، وهو الإله القادر الذى يستحق وحده أن يسمى بالموجد والمخترع - إن سمح لنا الفقهاء بأن نطلق هذا الوصف عليه سبحانه - وأن إيجاده تعالى لذلك العضو - أعنى الدماغ - الذى جمع بين أقصى الضعف وأقصى القوة والقدرة على الإيجاد والإبداع :

هو موضع العجب لعمرى . فلا الطيارة ولا مخترعها بأعجب من موجد الدماغ الذى اخترع وأبدع كل هذا الإبداع ، وإن الإنسان الذى يحاول اختراع طريقة لإنزال الغيث - إذا نجح فى محاولته - إنما يخترع طريقته ، ويبتدع وسيلته ، بدماغ خلقه الله له وابتدعه فيه وجمَّزه به لا بدماغ - خلقه هو نفسه أو جاء به من بيت أبيه وأمه ، ومهما أتى الإنسان بالجانب من اختراعاته ، يبقى هو وعقله المخلوقان لله آيتين على وجود الله وإبداعه فى خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين

القرآن

نشرت صحف الآستانة في أواخر سنة ١٩١٧م أن ولاية خداوندكار (بورصة) احتفلت بافتتاح مدرسة دينية، أسستها نظارة الأوقاف لتخريج حفظة للقرآن الكريم يقتدرون على ترقيله وتجويد تلاوته، وسميت تلك المدرسة (دار الحفظ)، وقد كان الاحتفال بافتتاحها عظيماً، شهدته والي الولاية وكبار المأمورين، وتليت فيه الخطب المتضمنة لبيان فائدة هذه المدرسة، وما يرجى للأمة الإسلامية بواسطتها من الخير والفائدة.

قرأنا هذا فسررنا جداً، وأثنيّا على إخواننا الأتراك من أهل تلك الولاية، الذين تنبهوا إلى وجوب العناية بالقرآن، ونشطوا لخدمته، ونشره بين أبنائهم، ولا ريب أنهم يشعرون كما نشعر بأن القرآن هو العروة الوثقى التي يستمسك بها المسلمون على اختلاف لغاتهم، وتعدد جنسياتهم، وأن تعاليمه الدينية تربط بين قلوبهم، فيتحدون ويتناصرون، كما تربط لغته العربية الفصحى بين ألسنتهم، فيتفاهمون ويتناصحون.

فما أكثر نفع القرآن للمسلمين، وما أجزل فائدته وأعظم بركته عليهم، ولإخواننا مسلمي الهند شعريته يغنون به في نعت القرآن يكاد يحفظه كل واحد منهم وها هو بلغتهم الأوردية :

(جمالو حسن قرآن نور جانی هر مسلمان هی)
(رقمہر ہی چاند اوروںکا ہمارا چاند قرآن ہی)

ومعنى ذلك فى العربية (أن القرآن نور لقلب كل مسلم ، وإذا كان للناس قمر يفرحون به وهو قمر السماء فإن قرنا نحن هو القرآن) .

أنزل القرآن على سيدنا الرسول ليكون نوراً وهداية للمسلمين ، وأنواع الهداية القرآنية كثيرة ، ويمكن إرجاعها إلى ثلاثة أمور :

(١) الهداية التعبدية ، وهى ذات وجهين : نتقرب إلى الله تعالى بمجرد تلاوة القرآن خارج الصلاة ، كما نتاجى الله تعالى به فى أثناء الصلاة : فتقع صلاتنا صحيحة مقبولة .

(٢) الهداية العلمية ، وهى ذات وجهين أيضاً : نستنبط من القرآن مسائل العقائد والعبادات وشؤون الغيب وما شاء الله من أطوار النشأة الآخروية : كما نستنبط منه أحكام البيع والشراء والنكاح والطلاق والقصاص والإرث وما شاء الله من المعاملات المتعلقة بالحياة الدنيوية .

(٣) الهداية السياسية : وهى أيضاً ذات وجهين : يستمدك المسلمون كافة بعروة الإيمان بالقرآن ، فتقوى عصيتهم ، وتشتد منعهم ، ويعزز جانبهم ، كما يتعلمون لغته الفصحى لصحة الصلاة ، ولاستنباط الأحكام ، ولحصول التفاهم بينهم ، فيتم امتزاجهم ، ويدوم اتحادهم ، وتتوثق أخوتهم . تفرّق المسلمون بعد الفتح الإسلامى ، وتبوأ كل طائفة منهم قطراً من أقطار المعمور : من سور الصين إلى شاطئ الإتلانتيك ، وقد مر عليهم ألف ونيف من السنين ، وهم أمة واحدة ، يتكلمون بلغة واحدة ، لماذا ؟ لأنهم يقرّسون القرآن ، ويتعبدون بتلاوته ويمارسون النطق بعبارته : فإذا أخذت مسلماً من الهند وآخر من مراكش ، وأنت من سوريا أو مصر وتكلمتم معاً بلغة القرآن وجدتم أنفسكم إخوة تنسبون إلى أمة واحدة ، ذات لسان

واحد، وتاريخ واحد، ولولا القرآن لأصبحت كل طائفة من طوائف المسلمين المتفرقين أمة قائمة بنفسها ولغتها، ولما فهم المسلم العراقي ما يقوله المسلم المراكشي، ولا هذا ما يقوله ذاك، لأن مرور الأيام، وتأثير أحداث الأدهار، يكون قد غمّل عمله، وفرّق اللغة العربية المضربة التي هي لغة القرآن إلى لغات عامية جديدة مستقلة، بعضها عن بعض. فتصبح اللغة مضر فروع متعددة، نسبتها إليها نسبة البنات إلى الأم: كما هو الحال في اللغة اللاتينية وبناتها الثلاث (الفرنساوية والإيطالية والاسبانية) الأصل واحد، ثم لما تفرعت تباينت وما عاد ابن اللغة الفرنسية مثلاً يفهم كلام ابن اللغة الإيطالية، ولا كذلك اللغة العربية القرشية فإن أبناءها اليوم يتفاهمون بها مهما تباعدت أقطارهم، وقل الاختلاط بينهم، والفضل في ذلك ولا ريب عائد إلى القرآن، وكثرة تلاوته، وممارسة العبادات به منذ الصغر.

ومحصل القول أن العناية الإلهية أسعدتنا بالقرآن في ثلاثة أمور.

(١) الهداية التعبدية .

(٢) الهداية العلمية .

(٣) الهداية السياسية .

ولسكن انظر كيف أن المسلمين حُصروا مع تمادى الأزمان عن الاستفادة الكاملة من هذه الهدايات الثلاث، وحوّلوها إلى ممارسات ثلاث أخرى شغلوا بها عن تلك، أما هذه الممارسات فهي :

(١) تتخذ من آيات القرآن تعاويذ ورقى للمرضى والمعتوهين والعقاة

من اللساء ، وقد يستعمله الدجاجة في نيل لُبائناهم من البسطاء والمفغاين :
فيوهمونهم أن آياته السكريمة تغنيهم عن عقاير الدواء . ووصفات الأطباء
(٢) تقرأ آياته في المآتم والتهاليل وفوق رؤوس الموتى وعلى قبورهم
فأصبح القرآن بسبب ذلك حانوت كسب لطائفة من الناس ، يتكفّفون
بعبارته ، ويتميشون من وراء تلاوته .

(٣) يتخذ القرآن بمثابة (مدارج للقراءة وللتطبيق) فيتعلم به الأولاد
في المكتاتيب القراءة والمهارة في نطق الكلمات العربية ، ثم إذا كبر أولئك
الأولاد وأصبحوا طلاب علم ، اتخذوا من آيات القرآن أمثلة لتطبيق قواعد
العلوم التي تعلموها من أصول ولغة وبلاغة ونحو وصرف .

وهكذا أقننا هذه الممارسات القرآنية الدنيوية الثلاث ، مقام تلك الهدايات
القرآنية السماوية الثلاث .

حكى لي بعض النباء ، أنه كان في حانوته يوما فسمع اثنين من المسيحيين
يتحاوران بالقرب منه ، فاصغى إلى حديثهما ، ففهم أن أحدهما يطالب بدين
له على ثالث ، وكان الذي يكلمه يقول له : إن مديونك يقول عن نفسه إنه
معسر ، وهو مستعد لأن يوفيك بدل دينك قدايس يملكها . (جمع قدّاس
وهو صلوات للنصارى) فأجاب الدائن وهل تسدّ القدايس جوعى ، أو تغنى
عائلتي عن الخبز ، ثم تفرّقا ، قال محدثي : فتعجبت يعلم الله من حديثهما .
وبعد قليل من الزمن جاءني شيخ مسلم مستور الحال وطلب شراء شيء ،
فأعطيته إياه ، ومد يده إلى جيبيه فلم يجد فيه ما يني بضمنه فاعتذر ، وقال لي : هل
لك أن أقرأ سورة الفاتحة عن روح المرحوم والدك بدل الثمن ؟ فقلت له :
رضيت بذلك ، ثم عجبت من هذا الاتفاق . وكيف أن التقاليد تسرى من

أمة إلى أمة ، وكيف أن الأديان تتفارض ، من دون أن يشعر أربابها .
وذكر أستاذنا الشيخ محمد عبده (رحمه الله) أنه لما كان في أوروبا مرّ على
بلاد المجر ، وزار دار الآثار فيها فمما وجدته محفوظاً في ذلك المتحف قميص
الوزير (كوبرلي مصطفى باشا) وهو آخر قائد عثماني حارب تلك البلاد وبعد
قتله تقلص عنها ظل السلطة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة . قال الشيخ : إنه
رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الإمام الغزالي
واستعادة الجلجولية وأمثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتم .

والشواهد - على أن المسلمين في عصورهم المتأخرة شغلوا عن القرآن
واستعاضوا عن هداياته الثلاث بالممارسات الثلاث - كثيرة جداً ، ولا مجال
للمكابرة فيها ، فما علينا - معشر المسلمين - في نهضتنا الجديدة ، وانتباهنا العام
المبارك إلا أن نرجع للعمل بالقرآن وهداياته الثلاث : فنأخذ من تلاوته
عبادة تنهانا عن الفحشاء والمنكر ، ومن نصوصه علوماً مفيدة في ترقية
شؤوننا الاجتماعية والأخلاقية ، ومن لغته الفصيحة لغة زامة نتفهم بها ،
مهما اختلفت لغاتنا ، وتباعدت أقطارنا ، فإذا أسعدنا أنفسنا بذلك نكون
عاملين بالقرآن ، ومتعرّضين لنفحات الرحمن .

هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا^(١)

« قرآن كريم - سورة البقرة »

إذا خلّصَ عليك الأميرُ خلقه ، أو وهبك داراً ، أو أعطاك متاعاً ، لا تكون شاكراً لإنعامه حق الشكر حتى يراك قد لبست الخلة ، وسكنت الدار ، وانتفعت بالمتاع ، وإن لم تفعل واطّرح ما أعطاك جانباً ، كنت جاهلاً قدر تلك النعمة ، متعرّضاً لغضب ذلك الأمير المنعم .

وهكذا يقال بالنسبة إلى ما خلقه الله فى هذا الكون : فإن هذه الموجودات إنما هى نعم أنعم الله بها على البشر ، وأمرهم أن يستعملوها فى الوجوه التى خلّقت لأجله ، وينتفعوا بها فى الوصول إلى سعادتهم : فإن أهملوا الانتفاع بها ، أو استعملوها فى غير ما خلقت لأجله ، كانوا كافرين بأنعم الله ، واستحقوا مقتله وغضبه .

والأغراضُ أو الحِكَمُ التى لأجلها خلقت هذه الموجودات ، منها ما هو ظاهر جلى : كحكمة خلق الشمس ليكون النهار معاشاً ، وحكمة خلق القمر لنعلم عدد السنين والحساب ، ومنها ما هو خفى كالحكم والأسرار الأخرى التى من أجلها خلّق الشمس والقمر ، وكحِكَم خلق النجوم والسموات كبمثلاً ؛ فإن هذه الحِكَم والأسرار الخفية لا يصح أن يخاطب بها الدين بمجموع البشر ، وذلك لتباين استعدادهم ، واختلاف درَجات عقولهم ، وإنما هو

تعالى خلق لهم العقول والمدارك ، وجعل فيهم هداية ورغبة في البحث والتتقيب للوصول إليها : فلم أن يستعملوا عقولهم ، فيهدوا ويصلوا ، ولهم أن لا يستعملوها فيخيّبوا ويخسروا .

أما بيان حكمة خلق الكواكب - بالقدر الذي تُطيقه الحالة العقلية لمجموع البشر بقطع النظر عن طبقاتهم ودرجات عقولهم - فهي أنها زينة للسماء : تلذذ العين ، ويتمتع بحسنها البصر : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)

وهكذا جميع الكائنات : لكل كائن منها حكمة ، قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خفية ، والقرآن يذكر بعضها ويسكت عن بعضها الآخر ، لعدم استعداد مجموع البشر يوم نزول القرآن لفهم ذلك وتعقّله ، والانتفاع بمضمونه .

أما نوع الإنسان فالحكمة من وجوده عبادة الله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ومعرفته الله (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف خلقت الخلق في عرفوني) . وهاتان الحكمتان قد تكونان جليّتين عند قوم . خفيّتين عند آخرين .

أما الحكمة الجليّة التي لا يرتاب بها أحد ، فهي أن الله سبحانه خلق البشر في الكرة الأرضية لتسكون هذه الكرة مشرقة بنور الدين والعلم والمعرفة ، مستأنسةً بالفضائل والعواطف والآداب ، مهيّزةً بحركات الاختراعات والاكتشافات والصناعات ، حيةً بكل ما كان من آثار العقل البشري ، ومحصول البحث الفكري ، فأصبح من مقتضى الحكمة أن يفيض الله سبحانه على الإنسان من النعم ما به بقاء نوعه وثبات أمره ، وأن يخلق

فى نفسه هداية توصله إلى الانتفاع بتلك النعم ، وأن يمهّد بين يديه طريق معرفة النواميس والسنن التى بها يتكاثر نسله ، وتشعب فروعها فيشمل العمران جميع سطح هذه الكرة الأرضية

ومن أجلّ النعم التى أعطىها نوع الإنسان نعمة النبات والحيوان : فقد خلقهما الله ، وسخرهما لخدمته ، ومكّنه من الانتفاع بهما : غذاء وكساء ودواء وركوباً وسائر مرافق العيش ، وتكاليف الحياة : فالحكمة فى خلق هذين الكائنين — النبات والحيوان — واضحة جلية ، لا تخفى على أحد ، فلو يبس النبات وانقرض الحيوان من على وجه البسيطة لهلك الإنسان ، ولم يعد يمكنه العيش والحياة فيها أبداً .

وأظهر مثال نستشهد به على ذلك ، ما يقدمه النبات لنا فى هذه الأيام (أيام الحرب الأولى) وقوداً للسكك الحديدية التى عدت وقودها من الفحم الحجري . فلو لا الغابات وأشجارها لوقفت الحركة ، ولتعرّس نقل الجنود إلى ساحات الحدود ، على أن الفحم الحجري نفسه هو بما أنعم به النبات ، وازدخره فى طبقات الأرض لينفع به الإنسان ، فإن ذلك الفحم ليس هو فى الحقيقة إلا نباتات استجرت بتأثير الاحتراق والانضغاط ، فما أجدد الإنسان بالشكر لله على أن خلق له هذين الكائنين ، وسخرهما لخدمته ، ومن الشكر عليهما العناية بقتلتهما وتكثير نسلهما ، وعدم إتلافهما وحرقتهما من دون فائدة تعود على نوع الإنسان ، وكأن الحيوان والنبات يقولان للإنسان : ها نحن أولاء خضعنا لك واستسلمنا لتسخيرك لنا حسب المشيئة الإلهية ، فلم يبق عليك إلا أن تكافئنا على ذلك باستبقاء ما لنا من الأنواع والفضائل والطرائف فلا تلتفها ولا تهملها ، فتذهب ضياعاً ، أو تفتنى بتاتا .

إن في عنايتك بنا ، وخدمتك لنا ، استبقاءً لأنواعنا المختلفة ، وإعانة لها على البقاء في هذا الوجود ، ولكن بقاء أنواعنا هذه إن كنا نحبه ونريده ، فإنما ذلك لأجلك أيها الإنسان ولكي يبقى نوعك ، ويثبت عمرانك ، وتصل إلى المستوى الذي قدره الله لك .

إن من الذهول أو الغفلة أن يهمل الإنسان العناية بتربية الحيوان ، واتخاذ مختلف الطرق لتحسين نوعه ، وتكثير نسله ، ومثل ذلك أن يهمل العناية بالغابات والبساتين والحدائق والحقول والمروج ، إذ في كلا الأمرين (نماء الحيوان ونماء النبات) منفعة له ، وفائدة تعود عليه بتخفيف آلام الحياة ومتاعها .

إن دولاب الحياة الاجتماعية بدور حول ثلاثة محاور أو مرافق (١) الصناعة (٢) التجارة (٣) الزراعة . ولا ريب أن الأولين يعتمدان في ارتقائهما بل في وجودهما على الأمر الثالث الذي هو الزراعة ، وليست الزراعة سوى تربية النبات والحيوان وتكثير نسلهما

فالزراعة (مادة العمران) وربما كان هذا هو معنى قول علماء الاجتماع (البداوة أصل الحضارة) أي أن الحضارة ، إنما تستمد بقاءها وانتعاشها من البداوة ، وما معنى البداوة إلا القيام على النبات والحيوان بالتربية والتوفير وتكثير النسل ، ثم إمداد الحضارة بمحصولها وريعها وثمراتها حالاً وخالاً .

ومحصل القول إن على الإنسان شكر النعم ، وعدم التفريط فيها ، وإلا كان كمن أعطى فضةً وذهباً فكثرهما ، ولم ينتفع بهما ، أو ألقى بهما في البحر ، بل شأنه كشأن من أعطى عينين ليبصر بهما طريقه ، فأطبقهما طويلاً حتى عميتا ، ثم أراد المسير فتردئى في حفرة ، وبئس المصير .